بكر أبو بكر

لِمَ لا



مجموعة قصصية

بكر أبو بكر

لمَ لا!

مجموعة قصصية

صدر بالتعاون
منشورات دار الزاهرة - بيت الشعر
رام الله - فلسطين

مؤسسة العنقاء للتجديد والإبداع
رام الله - فلسطين

الأخ بكر ...

قرأت ما تيسر من أقاصيصك هذه، وقد أعجبني فيك وفيها المقدرة على السخرية وتحويل أكثر المشاهد ألماً الى نقيضه، ولكن سخريتك تنضح بالمرارة ...

تحياتي
عبد الرحمن مجيد الربيعي
تونس العاصمة
١٩٩٥/١/١٣

* * * * * *

تنقل (الكاتب) من تفاصيل الأماكن والشوارع الى تفاصيل الجسد الانساني.. فيصور المرأة بدقة وعذوبة وعشق وبدقة نادرة...

ولا تخطئ العين ان بكر أبو بكر عالج كثيراً من المواضيع في هذه المجموعة القصصية باسلوب تهكمي ساخر ولكنه ساخط ومرير..

ان هاجسه في كل ما كتب كان فلسطين: الوطن، والشعب، والقضية فهي التي تعيش معه، وترافقه...

لقد ناقش كثيراً من الأفكار نقاشاً قصصياً تارة، وأخرى نقاشاً نظرياً فلسفياً...

د. عبد البديع عراق
رام الله في١٩٩٩/١١/١٢

رؤية

بداية يجب ان نتفق على ان الابداع مغامرة وها هو بكر أبو بكر المهندس والنقابي يخوض غمار التجربة ويكتوي بحريقها ويصر على ان يثبت وجوده على الساحة الابداعية وعلى ان يجسد ذاته في المشهد الثقافي من خلال هذه المجموعة القصصية التي تستحق القراءة كما لا يخفى ان الابداع فعل افرادي ولكنه في كل الأحوال ليس انعزالياً وللقصة القصيرة شروطها الفنية ومعمارها الذي لا يجوز التعدي عليه وبالطبع ليست صنعة متكلفة وانما هي فعل يعبر عنه بوسائل تعبير تفاعلية يمكن ان تسهم في التغيير الانساني وهي سلسلة أو مجموعة من الأحداث المتعاقبة بايجاز مقنع غير مخل يأخذ بعضها برقاب بعض من خلال علاقات دقيقة مباشرة أو غير مباشرة، ومن خلال ما تتميز به القصة من عمق (وهو ما نلاحظه من خلال بعض قصص هذه المجموعة). بالاضافة الى البساطة في وسائل الكتابة ذات المحتوى الدرامي ضمن أوساط متفاعلة، فالكتابة بالطبع ليست قلماً وورقاً وانما هي أبعاد ذات بداية وحبكة (عقدة) وخاتمة وفي هذه المجموعة لا نجد العقدة التي تصل الى حد الذروة في التفاعل الدرامي وانما هي أقرب الى الحبكة الاجرائية اذ التكيف التفاعلي يعني ذلك الربط المدهش بين كافة الشخوص والعناصر من خلال نسيج متكامل.

بكر أبو بكر في هذه المجموعة يعكس أشكالاً ونماذج من الأحداث والبشر ويعبر عن شخوص قصصه باسلوب سهل ينأى

عن الاغراق أو التعقيد وان كانت مسحة الحزن ونغمة السخط جلية في ثنايا هذه القصص ولا أخفي انه تبيّن لي ان الكاتب لا يقلد أحداً وله طابعه وشخصه الخاص وليس صورة عن غيره، وهذه واحدة تسجل لصالحه فهو لم يخرج من عباءة أحد وانما شكل له نهكته الخاصة وان شابت القصص جوانب سردية وصفية أثرت على الحبكة التفاعلية التي أشرنا اليها كما لاحظنا ميلاً الى استخدام الدارج من الألفاظ وهذا لعله ينسجم مع رؤية الكاتب وتعامله وتفاعله ومستوى التزامه بالواقع من حوله.. من خلال موهبة غنية تستحق التقدير.

ان قراءة هذه المجموعة القصصية تجعلنا نوشر الى ميلاد قاص شاب قضى سنوات في تشكيل هذه المجموعة وهي خطوة جادة على طريق الابداع الشاق والطويل نامل ان يفاجئنا بكر أبو بكر بغيرها لأننا ومن خلال معرفتنا به يمكن بسهولة ان نطلق عليه رجل المفاجآت وأنا على يقين انه لن يكتفي بما انجز مع ضرورة الاشارة الى ان الكاتب يملك قدراً كافياً من الثقافة والفكر والشفافية رغم انه المهندس ولا غرابة.

ربحي محمود المرقطن

١٩٩٩/١١/١٧

اهــــداء

الى ليلى زوجتي وصديقتي، الى حـنين
وميساء وسمية بناتي وصديقاتي.

بكر

الفكرة التائهة

مسرعاً يركض، يسابق في جريه خيول البراري، يعدو لا تكاد قدمه تمس الأرض حتى ترتفع في الهواء لتحط أختها، في عجلة من أمره هو، عرق شديد، يسيل من كامل خلايا جسمه، الخطوات تتلاحق، وأصوات وقع أقدامه على أرضية الرصيف الطويل يسمع على بعد أمتار... العرق يبلل كامل جسده، وأخذ القميص الذي يرتديه يشف عن شعر صدره لأنه أصبح شديد البلل،.. حتى السيارات المنطلقة كما الرصاصة في رعونة... التفت أصحابها إلى الرصيف الذي يجري فوقه ذاك الرجل المتأنق.. الذي يرتدي بزة جميلة قاتمة اللون.. مع قميص أبيض وربطة عنق مقلمة.. تحول العرق إلى خيوط من الماء يسيل من آخر منبت للشعر في نقاط الاتصال بين رأسه ورقبته وتتدحرج على ظهره... في خط غير مستقيم يتقدم، متعرجاً، ملتوياً متجاوزاً المارة الذين يسيرون زرافات ووحدانا فالوقت هو فترة خروج الموظفين فترة الظهيرة..

لأكثر من مرة كاد يصطدم مع الباعة الذين افترشوا الرصيف يبيعون الدخان والخواتم والساعات والقداحات والأقلام... هكذا يظن كل من رآه يعدو فيمرق مروق السهم من القوس ... وهو يركض لا تفارق البسمة شفتيه حتى اذهل بِعَدْوِه وأناقته وسرعته وابتسامته... النساء المطلات من شرفاتِ المنازل بإزاء

الشارع...

- لماذا يركض هذا الوسيم بهذه السرعة الجنونية؟

- بل قولي لماذا يعدو بهذه البدلة الأنيقة؟

- أما كان من الأفضل ان يرتدي ملابس التريض؟

- انظري إلى شعره الفاحم المتطاير

- بل.. ألم تلاحظي تغيّر ملابسه الجميلة؟

- مسكين.. لا بد أن وراءه مصيبة.. كمن استفاق من صحوة فجأة ليكتشف أن كيلو اللحمة أصبح بدينار!

- لا.. لا.. لا تسخري منه، فلربما نسى موعداً هاماً مع كلوديا شيفر... مثلاً (تضحك)

- أنا أعتقد يا أم أحمد أن وراءه زوجة يقفل عندها باب المنزل مع دقات الساعة الثانية ظهراً.. وهو يجد في الركض أو الجري ليصل قبل أن يتغذى المحشي بالشخط والنطر والقدح والردح.

- لا.. يا أم خليل، لِمَ تسيئين الظن بالناس.. ألم أقل لك إنه لربما نسي موعداً أو شيئاً هاماً فقد يكون نسي همومه وقلقه وأرقه ويريد أن يلحق بها قبل ان تضيع.

- (وترد أم أحمد ممازحة) لو كانت هذه حاله لكان من الأجدى له كي يلحق بهمومه وكآبته، أن يركب حافلة المصلحة المخترقة لحاجز الصوت. (تضحكان معاً) لا بل تقهقهان، حتى يصل صوتاهما لرواد المقهى الذين تركوا دخانهم ومشاريبهم وشخصوا جميعاً صوب ذاك الذي جعل من وسط البلد ميداناً للجري.. تهامس وتضاحك، أصوات وجلبة وأحاديث جانبية،

وهو في جريه لا يهدأ.. ما أن تتباطأ ساقاه حتى تجرهما قدماه، فتستقيمان معاً ويواصل العدو، لا يهدأ ولا يلين.. أصبح صوت لهاثه مسموعاً، بعد ان استبدل الشهيق بالزفير فما بأنف.. قدم على الأرض تحط والأخرى عنها تنط ولا مجال للتراجع.. لقد أثار هذا المنظر حتى شرطة المرور فاقلعوا عن التصفير وطفقوا يتفرجون كما هو شأن قادة السيارات.. لا قادة الأركان...

انه لليوم الثالث على التوالي.. وفي نفس الوقت والمكان يحدث هذا التسابق مع المجهول من هذا الرجل الوسيم الأنيق ذو الحلة الداكنة، والمبتسم.. يركض مخترقاً وسط البلد المنبسط.. الوادي ليرتفع على التلال فيغيب عن أبصار المارة ورواد المقاهي والباعة والمشترين وشرطة المرور وإمام الجامع الكبير.. فوق التل، تحت التل اسأل عنا الريح تندل.. لم يخطر ببال أحد طوال الأيام الثلاثة أن يتابع رحلة هذا الصاروخ الآدمي ليعرف منتهاها...

فغالبهم قد وصموه بالجنون.. وأراحو أنفسهم من عناء التفكير.. وعادوا للعب الطرنيب والأربعمئة.. أو عادوا ليستزيدوا من أنفاس (الأرجيلة) ومن التمس له العذر في اليوم الأول أو أساء به الظن فحسبه لصاً أو سارقاً هارباً.. عاد في اليوم الثاني أو الثالث ليتهمه في مداركه وعقله.. ولم يفكر الا صبي لم يتجاوز عمره الخامسة عشرة، يبيع بطاقات اليانصيب على ناصية الشارع بأن يتبعه.. ولما لم يستطع في اليوم الثاني ان يجاريه في العدو خطر له ان يستأجر دراجة

وتبعه بها ولكنها مع صعود الرجل العداء للجبل أو التل لم تستطع الدراجة أن تهزم الصعود ليتحول إلى هبوط للأسفل.. ولما أعيته الحيلة مع الدراجة استبدلها بحصان..

وفي اليوم الرابع كان الباعة والمشترون بعضهم وليس كلهم ورواد المقهى.. وإمام الجامع طبعاً.. وأم أحمد وأم خليل وشرطة المرور عيونهم على اياديهم اليسرى المثنية باتجاه صدروهم.. يحدقون في ساعاتهم.. الآن سينطلق السهم.. الرمح.. الرجل العداء.. الأنيق المبتسم.. الرجل المجهول، وفي ساعة الصفر تعلو وجوه الجميع الدهشة والانبهار.. ما هذا، لا بد انه شريط سينمائي طويل.. أو حدث سياحي، أو معتوه، أو مختل المدارك، أو جاسوس لدولة شقيقة، أو أحد المتطرفين الاسلاميين أو محتال على الجمارك، أو عداء ضل طريق الماراثون، ولربما هو نوع جديد من القطارات البشرية التي تسير على سكة محددة وبسرعة ثلاثمئة كيلومترٍ بالساعة.. كانت هذه حصيلة الآراء النيرة في اليوم الرابع.. إلا أن الدهشة التي عقدت الألسن، وجمدت الدماء في العروق وأزالت الماء من جميع الوجوه.. هي أن الرجل العداء لم يكن وحيداً هذا اليوم، لقد كان يلاحقه حصان يركبه فارس هو ذاك الصبي بائع اليانصيب.. فازداد الناس عجباً على العجب.. ومع مزيد الاثارة والجلبة التي بدأ يعيشها الشارع نتيجة لهذا الحدث الغريب.. آثرت السلطات أن تتصدى لحفظ الأمن وتقوم بواجبها وتعتقل هذا المعتوه.. قبل ان ينطلق كل أهل البلد إلى الجبل في عدوى.. كعدوى الزكام التي سرعان ما تنتشر مع حلول كل شتاء، فلا تنسى

صغيراً ولا كبيراً ذكراً كان أم أنثى أو ما بين بين.. المهم أنه في هذا اليوم ولأن البلد بلد أمن وأمان وحرية وديمقراطية... وبلد استقرار وحمية.. لا بد من وضع حد لهذا الشغب، حيث انتشر الهجانة على قمة الجبل، وكانت الخيالة على مفارق الطرقات، وسيارة النجدة من نوع (الشفروليه) الأمريكية الصنع تذرع الشوارع جيئة وذهاباً، أما عن شرطة مكافحة الشغب فلا تسل.. فهم بين كل شخص وآخر وضمن رواد المقاهي ومع إمام الجامع ومع الباعة ومع أم أحمد وأم خليل... وما ان برز العداء من فتحة في جدار الصمت الطويل.. وبدأ ينطلق في ميدان العدو الطويل حتى أصبح ولما يمض على مروره ربع ساعة، أصبح وراءه خط طويل من العدائين من شرطة مكافحة الشغب.. وعدد من الخيول، ومجموعة لا تقل عن تسع سيارات نجدة تملأ السماء صفيراً.. وطلقات الإنذار لم تنفع، وصيحات التحذير بعدها لم تفلح.. إلا أن سقوط بائع اليانصيب بين أيديهم قد جعل من جلده ألوان قوس قزح...

لأول مرة.. تزداد الابتسامة في وجه ذاك الرجل حتى تحولت مع عدوه إلى صهيل دوى كالرعد، أخاف حتى باعة الهريسة والترمس.. أصوات أجهزة اللاسلكي بين أيدي رجال الأمن... والنداءات المتتالية، والاتصالات التي لم تنقطع والتي شُكلت من (خلية الأزمة) تمازجت مع صهيل الخيول وذاك العداء المجهول ووقع أقدام المشاة من رجال الأمن... نعم سيدي.. الهدف أمامنا وأطلقنا عليه النار مباشرة حسب الأوامر.. ماذا؟

اطلقتم عليه النار؟ ولم تردوه قتيلاً؟! أأنتم سكارى؟ ...

لا ... يا سيدي لقد أصبناه ولكنه لم يتأثر؟... وكيف ذلك أيها الأبله؟ .. عذراً سيدي اعتقد انه يرتدي سترة واقية من الرصاص؟.. استخدموا الرشاشات وحتى المفرقعات.. فان أمن البلد فوق الجميع.. كلنا فداء لأمن البلد!؟... نعم سيدي.. حاضر.

تصل التعزيزات تلو التعزيزات حتى يتجندل من الجماهير العشرات برصاص الجنود، رجال الأمن.. كلنا فداء لأمن الوطن.. هكذا قال القائد وفي نهاية الماراثون.. وبعد ساعات لم يستطع جميع هؤلاء اللحاق بالرجل.. ومع ارسال الحملة التفتيشية بعد الأخرى.. عثروا على الرجل مستلقياً تحت شجرة برتقال وهو بكامل أناقته وبجانبه فنجان قهوة عربية خالصة وبضع ثمرات، وحليب ناقة.. سلم نفسك.. سلم نفسك والا اطلقنا عليك النار... كانت النار قد اندلعت بالطبع قبل ان يمتد فم رئيس القوة ليلامس السماعة وبحركات فدائية، واندفاعات هجومية، وقفزات بهلوانية تذكرنا ببطولات التنظيمات المتصارعة على الأرض اللبنانية أيام الحرب الأهلية وغير الأهلية.. يكبلون يدي الرجل ورجليه..

تطير عبارات التهنئة والتبريكات عبر اللاسلكيات لتملأ الجو فرحاً ونشوة.. سيدي مبروك وتهانينا.. لقد قبضنا على المجرم.. ولم تخلف العملية سوى عشرين أو أربعين قتيلاً وخمسة وتسعين جريحاً من أبناء الشعب.. بارك الله فيكم، ولماذا لأربعة أيام متتالية كان هذا المجرم يعكر صفو الأمن.. ماذا قال لكم في التحقيق الأولي؟ أجبني؟ ... سيدي لقد كان

يتكلم بلغة لم نفهمها ؟ .. ماذا ؟! احضروا له مترجماً وافيدوني بما قال؟... لم نقصد انه تكلم لغة أجنبية ولكنه يتكلم بلغة خطاب لا تُعرف!.. أجبني بسرعة ماذا قال... لقد سألناه، سيدي عن سبب ما فعَل طوال الأيام الأربعة فقال:

- انني أبحث عن فكرة سقطت مني في هذا الطريق وأحاول يومياً اللحاق بها قبل ان تصعد من على هذا الجبل إلى السماء.. ولما استهجنا واستغربنا ما يقول.. أجاب

- لم تستطيعوا ان تتقبلوا جوابي هذا ولم يمر عليّ أيام أربعة أبحث عن الفكرة وتقبلتم بأيام معدودات الصفح من عدوكم والتسامح معه، والسلام عليه، والارتماء بين أحضانه، والتودد له، والتلذذ حتى بصفعاته والاستمتاع بركلاته، وبلوغكم قمة النشوة بسرقته لكم، والضحك عليكم عالياً كلماً أدار لكم قفاه بعد كل معاهدة وبعد كل اتفاق وبعد كل تنازل إثر تنازل.. تقبلتم ان تلقوا بسبعين عاماً من العذابات والآلام والقتلى والثكالى والنهب والاستلاب والتشريد وأطنان الصحف، وملايين اللترات من الأحبار، وما لا يعد ولا يحصى من كلمات القتال والجهاد في كفة والتأوه والبكاء والنحيب في كفّة أخرى.. ولم تتحملوني على أمن هذا البلد أربعة أيام جريتها أبحث عن فكرة تائهة.. آلو من يتحدث؟ ماذا تقول؟ لا بد أن هذا الهاتف قد وقع في تشابك خطوط!!..

تونس ٢٨/١٢/١٩٩٤

انهم يوزعون المخصصات مع أصبعين من الموز!

يسمونه لدى قادة وموظفي وشعب منظمة التحرير الفلسطينية بكامل فصائلها (المخصص) أما لماذا هذا الاسم دون كل الأسماء التي تطلق على (الأجرة) التي يتلقاها الموظف أو العامل آخر الشهر.. يجيبك ذاك الثوري بوجهه العبوس، وبالتقطيبة التي لا تفارق وجهه، وعلو الصوت، وجهامة القسمات بأننا في (ثورة) ولسنا في (شركة) أو (وزارة) لذلك فان الثوار (المتفرغين) أي أولئك الذين تبتدئ دنياهم وتنتهي في فلسطين فقط دون سواهم من الفلسطينيين أو عباد الله الذين اغرموا بهذا البلد تنفيذاً لتعليمات الرب لاتباع الديانات السماوية الثلاث السائدة حتى الآن.. اذن هو (مخصص) للمتفرغين وليس شهرية ولا راتباً أو مرتباً أو معاشاً أو ماهية، ولأنه مخصص فهو في أحد أشكاله (يخص) البعض أي يعطى للخاصة أي لأولئك الثوار، المناضلين، الأشاوس من الدرجة الأولى وهو من ذاك المعنى المذكور في أولئك الذين قال فيهم سبحانه وتعالى .. (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .. أي انه يتم التصدق به على أولئك الثوار من الدرجة الثانية أو السياحية من ذوي الحاجات أو ذوي (الخصاصة).. ولأنهم ذوو خصاصة وفيهم طوعت الآية الكريمة كان لزاماً عليهم أي

(ذوي الخصاصة) ان يؤثروا على أنفسهم لأولئك (الخاصة) حتى في (مخصصاتهم) ... هكذا تقتضي عدالة القيادة التي لها وحدها حق الاجتهاد والفتوى في آيات الله البينات...

مسرعاً أقبل يهرول.. الحقوا يا شباب اليوم يوزعون المخصصات في مكتب الأمن الموحد.. يتصايحون فيه.... كل من في المكتب.. عفواً كل ذوي الخصاصة في المكتب مستحيل كيف ذلك؟.. ونحن اليوم لم نتخطّ اليوم السادس عشر من الشهر التالي على موعد تسليم المخصصات.. هل من المعقول ان يسلمونا مرتب الشهر الثامن في السادس من الشهر التاسع.. نحن لا نصدق، العب غيرها لقد قال لنا مسعود المالية ان لا تحلموا بالمخصص قبل الخامس والعشرين من الشهر التاسع.. بحنق شديد ونفاذ صبر يقول لهم.. كفاكم، كفاكم تحليلات وتأويلات وأنا قادم لتوي من مكتب الأمن الموحد وقد لمحت الشيخ عبد المهيمن وهو يدخل المكتب وبيده كيس أصفر منفوخ، وكشف لا بد أنه كشف الرواتب.. واذهبوا لتروا بأنفسكم.. يتصايحون وتعلو أصواتهم ما بين مصدق ومكذب.. وفجأة يقطع عليهم صياحهم صوت أكبرهم سناً وأكثرهم خصاصة ليقول هيا بنا يا شباب لنلحق الطابور... ونتحصل على مخصصاتنا قبل ان تنفد.. فلربما يكون الكلام صحيحاً واذا لم نلحق ستنفد المصاري وهات خلها.. يدلفون الواحد إثر الآخر إلى السيارات، بينما يهرول الآخرون جرياً إلى مكتب الأمن الموحد ... عشرات السيارات تغلق الشارع، وضوضاء ازعجت الأجواء والسفارة الباكستانية المحاذية للمكتب، وباعة الترمس

والبزر بدأوا يتوافدون إلى ميدان المعركة، ونساء المناضلين، والمناضلات المتفرغات منهن من ترفع ولدها على يديها، أو تمسك به.. مقابل ضوضاء وثرثرة المناضلين فان زغاريد النسوة بوصول (المخصص) لم تنقطع.. الكل يتجمع خارج مكتب الأمن ... والباب مغلق والحرس على الباب، وسيارة الشيخ عبد المهيمن غير موجودة، وبعد أخذ ورد يتقدم أكثرهم خصاصة إلى الباب فيجابه بالحارس الأمين للمكتب.. وين يا أخ؟ ... رايح اقبض مخصصي.. ممنوع؟... كيف ممنوع وقد قالوا لنا ان القبض هنا ؟! ابداً لقد جاء الشيخ عبد المهيمن في زيارة تفقدية للمكتب للاطمئنان على أحوال الرعية.. وقد أخبرني أنه سيوزع المخصصات بعد ساعتين في مكتب المنظمة أو مكتب الـ ١٧ أو مكتب المنظمات الشعبية.. ولربما يوزعها في مكتب الأمن المركزي.. الكل يصغي للحوار الدائر بين الأكثرهم خصاصة والحارس لتصيح إحدى النسوة.. إنني منذ الصباح أتنقل من مكتب إلى آخر بحثاً عن مكان تسليم المخصصات تاركة ابنتي المريضة وحدها في البيت.. لتقول بعد كل هذا إن المخصص سيوزع في واحد من مكاتب أربعة ذكرتها.. يرد الحارس على صياح المرأة.. لا ترفعي صوتك فيّ يا أختي فأنا أيضاً مثلك من ثوار الدرجة الثانية.. الدرجة السياحية، ولقد سلمت كما هو شأنك وكل الرفاق أمري للمانح المانع، وحده لا شريك له!

تعود همهمة الرجال ثانية وتعلو أصواتهم.. ومن بينهم يبرز أبو البواسل.. شاب في مقتبل العمر.. لم يترك معركة في الجنوب اللبناني الا سجل فيها أروع الملاحم ضد العدو

الصهيوني، وهو نفسه من تسلم وسام الشجاعة في دفاعة عن مخيمات بيروت في وجه كل الحاقدين والمارقين... قدم أغلى ما يملك، أو هكذا ظن ذلك المسكين... قدم أمه وأباه وأخويه فداء للوطن، ولحماً لجنازير دبابات العدو ولم ينسَ حتى عروسه اللبنانية الشابة.. الشقراء الفاتنة، صاحبة الوجه الصبوح، والصدر العامر، والقد الشامخ.. والابتسامة الأزلية لم تفارق وجهها حتى عندما شقتها قذيفة المحبين إلى نصفين.. الأول انغرس في أرض لبنان والثاني حملته الرياح لينام في أحضان صفد.. لم ينس ان يقدم عروسه الشابة.. فداء للوطن، والحقها بعينه اليسرى ويده اليسرى.. صاح أبو البواسل، يا أخوان لقد مضى على قطع مخصصاتنا شهور أربعة عجاف.. أكلنا فيها الكسكسي دون علوش، والمعكرونة دون صلصة، والرز دون جميد.. والحمد لله لم نر من أخوتنا أصحاب الكروش المندلقة، والعيون الحمراء الزائغة من السهر وتجرع كؤوس الجونى ووكر والشيفاز ريغال، أولئك الذين لا ينسون ان حب الجماهير يعني الالتحام فيهم إلى حد الثمالة بما لا يعني فكاك فخذ عن فخذ أو صدر عن صدر أو بطن عن قفا.. وبما يجعلهم لا ينسون الاصرار على دورية صرف فواتير علاجهم الضخمة، وتصليح سياراتهم الفخمة، وشراء ملابسهم الداخلية وموانع الحمل.. حتى معجون أسنانهم على حساب الثورة، أقول الحمد لله لم نر من هؤلاء الأخوة الأحبة الا كل خير.. فهم ما زالوا يستقبلون رجال الصحافة والاعلام ينفون دورياً ان مخصصاتنا لم تصلنا.. ويحلفون أغلظ الايمان وهم صادقون!! اننا مكتفون وزيادة،

حتى انهم ليثبتوا أن الثورة بألف خير لا يهملون الاحتفال برأس العام (الريفيون) وأمام عدسات المصورين.. أبعد كل هذا نقلق على مخصصاتنا ؟!.. ونتعجل أن نقبضها!.. ويحكم أيها القوم إننا أصحاب الخصاصة الذين نؤثر على أنفسنا لينعم أخوتنا أصحاب الخاصّة.. وكما جاء في التعميم الأخير الذي وصلكم أفلا تتفكرون، أفلا تعقلون، وتبقون بنعمة ذلك الطاعم الكاسي جاحدين!!..

ويلك.. يا أبو البواسل.. أنسيت تاريخك المشرف ونضالك العظيم لتنظر لهؤلاء المتكرشين.. أتركوه لا بد يوماً من سباته سيفيق وهيا بنا نجول بين المكاتب الأربعة فلربما نصطاد الشيخ عبد المهيمن قبل أن تنفد المصاري الحقوني.. مجموعات تركب السيارات وتجول في أنحاء المنازه التسعة التي تشكل أجمل وأثرى ضواحي تونس العاصمة والتي تنتشر فيها المكاتب المذكورة.. ومجموعات أخرى تهرول مسرعة.. ومجموعة ثالثة من كبار السن والنساء والأطفال تشكل قافلة راجلة لتقوم بنفس مهمة الآخرين.

بعض من حالفهم الحظ استطاعوا بعد أيام من البحث المضني، وبعد ساعات من الدوران على نفس المكاتب في نفس اليوم ان يهتدوا لموقع تسليم المخصصات، وما ان يحط أحدهم في المكتب حتى ينطلق باتصالاته مع جميع اخوانه من أصحاب الدرجة السياحية.. ليتركب طابور طويل خلال ساعة أمام الغرفة المسدودة التي يتجمع فيها الشيخ عبد المهيمن وتنابلته الثلاثة.. ليعود الضجيج والصراخ ثانية.. طابور يا شباب.. تدافع

بالأيدي والاكتاف، تراص بالأجساد والعيون جميعها شاخصة على أكرة الباب، الآن ستفتح بعد قليل ستفتح، ساعة مرت وبدأت تفوح من الطابور رائحة العرق.. وفي لحظة أحس فيها الناس أن الأمل قد فقد.. انفتح الباب فجأة وانطلق أحد التنابلة إلى الخارج.. ماذا هنالك؟ ماذا حصل؟ إلى أين انت ذاهب؟ مبتسماً يخرج ولا يجيب أحداً.. يتبعثر الطابور ثم لا يلبث أن يعود منتظماً.. وفي ذيل الطابور الممتد إلى الشارع وبشكل ملتو اصطف مع المصطفين أخونا أبو البواسل..

عاد التنبل ثانية وسيارته مليئة بصناديق الكرتون طالباً مساعدة الشباب، فيتطوع خمسة من الأخوة يحملون معه الصناديق ويدخلونها بصعوبة إلى (غرفة العمليات) وتثور التساؤلات على الشفاه والوجوه... ولا جواب للسؤال الحائر في اذهان الجميع «ماذا في الصناديق؟!..»

آلو.. مين، ماذا؟ يوزعون المخصصات في مكتب الـ ١٧ منذ ساعة مضت.. لماذا لم تتصل بي إلا الآن.. ما زال هناك فلوس.. ماذا؟ ماذا قلت؟ ويوزعون موزاً مع المخصص؟ ماذا تقول هل جننت؟ أنا قادم... يلا شباب مخاطباً انداده في مكتب الشؤون الاجتماعية.. ومتجنباً مخاطبة أولئك الذين قبل أن ينتهي الشهر يكونون قد تسلموا مخصصاتهم وأجور بيوتهم وثمن بنزين سياراتهم، وقيمة فواتير تصليحها، وفواتير علاجهم وعلاج جيرانهم وأمهاتهم وحمواتهم وعشيقاتهم وبائع الخضار المجاور، وعساس الفيلا.. هيا يا شباب الشيخ عبد المهيمن يوزع المخصصات وأصبعي موز لكل متفرغ.. يصيحون

بصوت واحد وكمان موز.. يا الله ما أجمل ان تكون مناضلاً في الثورة الفلسطينية وفي تونس وتأكل الموز أو...

أوف.. ما زال الطابور على حاله، وكلما نقص منه واحد وخرج حاملاً مخصصه واصبعي الموز ، ازداد الطابور أضعافاً مضاعفة ... ومع مرور عدد من ساكني حي المنزه التاسع حيث مكتب الـ ١٧ توجه أحدهم إلى «أبو البواسل» مستفسراً عن سر هذا الطابور ، وهؤلاء الذين يخرجون حاملين قرون الموز؟ وكاد يشيح بوجهه عن الرجل من حرارة الجو ورائحة العرق وتدافع الأكتاف ، وطول الإنتظار ... لكنه تمالك نفسه وقال:يا أخي إنهم يبيعون الموز بالداخل الكيلو بخمسمائة مليم ... ماذا ؟ صاح الرجل كيلو الموز بخمسمائة مليم ؟ وذهب يعدو ...ليعود مع حشد كبير من السكان اصطفوا في مؤخرة الطابور حتى وصل مكتب (وفا) حيث كان يستريح مسعود المالية... أو قل يختبئ من المراجعين . على مكتب رئيس الوكالة كان يجلس ، يداه خلف رأسه متشابكتان، ورجلاه الظاهرتان على ظهر المكتب مصوّبتان كبندقية ناتو في وجه أحباء المالية ومسعود المالية الذين تقاسموا المقاعد الوثيرة وحتى (الترابيزات) ، والذين لم يجد بعضهم متسعاً للجلوس على المقاعد ولا على الترابيزات، افترشوا الأرض، يحدقون بافتتان ووله في وجه أحد أبناء السماء العظام.. في وجه ابن الطاعم الكاسي.. قلوبهم معلقة بالأخضر، وأرواحهم تحوم حول رجليه الطاهرتين الممدوتين المصوبتين في وجوههم كبندقية ناتو.. افواههم فاغرة، والسنتهم ظاهرة، والوجوم والصمت سيدهم..

وبين كل فترة وفترة.. تتعالى ضحكاتهم كلما نطق ابن السماء بطرفة من طرائفه المكررة المملة.. والكل منهم يمنّي النفس بنيل الرضا.. وتوقيع كتاب المساعدة المحشور في جيوبهم.. وينتظر الفرصة السانحة ليقدمه لمسعود المالية.. يداه ما زالتا معقودتين خلف رأسه والكرسي الوثير يتمايل به يمنة ويسره ورجلاه مع حركة الكرسي تبعثران الأوراق والتقارير والنشرات الهامة الملقاة على المكتب...

يتحلقون حوله بتواضع وأدب يبدو جما، وانفعالات محسوبة وكلمات لا تخرج الا بميزان.. كأنهم تلاميذ نجباء حول معلمهم الكبير أرسطو.. يتمايل مسعود المالية طرباً كلما كيل له المديح من أحباء المالية وعبيد كتب المساعدات تلامذته النجباء.. إذ أنه رغم اختبائه في مكتب (وفا) من سيل المراجعين إلا ان شخصاً مشهوراً مثله.. لا يمكن الا ان يستدل عليه احباؤه.. ما بين ترقبهم للحظات المناسبة لعرض كتبهم على مسعود المالية، وما بين ضحكاتهم البالية المحطمة و... يندفع أحد الحرس من خارج المكتب، ليبلغ مسعود المالية بخبر الجماهيرُ الغفيرة التي امتد طابورها حتى وصل لا إرادياً موقع تحصنه في وكالة (وفا).. فيقطع عليه جلسة المريدين أو المحبين لجمال ودلال ودلع قلمه الأحمر الرشيق ليرغي ويزبد.. ويوزع الكلمات «الجميلة» في كافة الاتجاهات ولجميع الحضور، من (الزنار ونازل).. ثم يلحقها بإصدار الأوامر والتعليمات بالقاء القبض على المتسبب في هذه الفوضى التي أدت لتعكير مزاجه وصفاء ذهنه وحسه المرهف.

سوء الطالع كان من حظ أبو البواسل حيث أصابته التهمة.. تهمة تعكير صفو أمن مزاج مسعود المالية وفوضى الطابور أمام غرفة توزيع (المخصصات) وقرون الموز.. أصابت سيئ الحظ.. أبو البواسل، لا سيما وأن كلماته الرنانة أمام الحشد الذي تكدس منذ مدة أمام مكتب الأمن، لم يخل من (العيون) التي تترصد الأعداء، ولا تترك لهم مجالاً أبداً.. ليدخلوا تونس ما شاء الله آمنين ويقتلون أبو جهاد وأبو الهول وأبو إياد لا قدر الله؟!.. المهم أن هذه (العيون) التي لا تغفل قدمت تقاريرها .. فانتشرت جحافل زبانية السجن ومرافقي مسعود المالية لتلقي القبض على أبو البواسل.. في نفس اليوم، وحتى قبل أن تكتحل عيناه برؤية الأوراق الثلاث الخضراء من فئة المئة التي يتسلمها كلما خطر في بال (الخاصة) أن يجودوا من أموال أجدادهم على (ذوي الخصاصة) .. وحتى قبل أن يتحسس أصبعي الموز.. أو حتى يلمس أو يشير من بعيد للحجر الأسود المركون إلى جوار الشيخ عبد المهيمن والمليئ بالأوراق النقدية التي تتصدر منتصفها صورة الأخ جورج واشنطن.. رفيق درب المناضلين وحبيب نسائهم.. وصانع فرح أطفالهم.

ما كان سوء الطالع لينفك عن أبو البواسل منذ كان طفلاً عاش التشرد والهزيمة ثم فقدان الأحبة والأعزاء.. وحتى عندما خفق قلبه للمرة الأولى بحب المرأة الأولى لم يمهله القدر ليتذوق شهد شفتيها الشهيتين.. ولا لأن يتحسس سهول وهضاب جسدها الأبيض كالحليب والناعم البض كقطعة من الحرير الهندي ففلقها نصفين كما ثمرة اللوز.. وألقي القبض على الأخ أبو

البواسل وقذف به في بلدة حمام الشط بانتظار موعد محاكمته على جريمته الشنعاء.

مكبلاً حملوه في السيارة من حمام الشط إلى المنار حيث عقدت جلسة محاكمته أو بالأحرى جلسة التحقيق.. لأنه لم يحاكم فلم يكن له أبسط حقوقه.. ان يكون له محام.

– اسمك ؟.

– أبو البواسل.

– اسمك الحقيقي والرباعي ؟.

– سعيد محسن محمد المبروك.

– سنك ؟.

– خمسة وثلاثون عاماً.

– انت متهم باثارة الفوضى وإحداث الشغب وتعكير مزاج أحد القادة العظام لثورتنا العظيمة في يوم عظيم هو يوم توزيع (المخصصات).. ومتهم باساءة العلاقات مع دولة تونس الشقيقة، والتحايل على بعض متساكني المنزه التاسع، ومتهم بالتعريض بالقيادة وشتمها علناً وأخيراً أنت متهم بتحريض الآخرين على التأمل والبحث والتفكير.. فما قولك.

– هل تسمح لي بكلمة يا سيدي قبل الاجابة على اتهاماتكم ؟.

– تكلم بايجاز.

– كلمتي استفسار.. هل أنا في سجن دولة عدو.. لا أعتقد وإن كان كذلك.. فما هذه الأسئلة الغريبة والاتهامات العجيبة التي لا تختلف كثيراً عما واجهني به الأعداء في

إحدى المرات التي اعتقلوني فيها..

- اسكت .. كفاك تهكماً، نحن لا نسمح لك بهذه المقارنة يا مجرم.. أجب عن الاتهامات الموجهة لك دون لف أو دوران.

- حاضر .. وآسف لجرأتي على الاستفسار، أما بالنسبة لاثارة الفوضى وأحداث الشغب.. فما كنت إلا أحد الأشخاص المصطفين في الطابور، وأما عن تعكيري لمزاج سيدنا مسعود المالية فحاشا لله أن اتجرأ ولو على التفكير في هذا الأمر..حتى أنني لا أعرف شكله ولم يحالفني الحظ أبداً بلقياه أو بأن يخربش بقلمه الأحمر اللطيف على أي كتاب لم أفكر أن أقدمه.. وإن شدة حرصي على تسلم مخصصي تمنعني أصلاً من الاحساس بما يدور حولي في ذاك اليوم العظيم.. فلا أبصر ولا أسمع ولا أنطق.. فكيف أسيئ العلاقات مع هذا البلد الأمين.. أما عن التعريض بالقيادة فأنا متهم بالتنظير لها فكيف يتفق اتهامك مع ذلك... وأما عن تحريض الآخرين على البحث والتأمل والتفكير.. فأنا معترف!

- ان المحاضرة والفلسفة التي القيتها علينا.. هراء في هراء في كلام فاضي.. فأنت باعترافك الأخير كأنك تعترف بكل التهم فما قولك.

- (صمت).

- خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم في سلسلة ذرعها تسعون ذراعاً فاسلكوه.. انه لا يؤمن بالقائد العظيم ولا الثورة العظيمة ولا اليوم العظيم.

تونس ٢٩/١٢/١٩٩٤

لم لا !

اعطيتها موعداً.. كيف يكون... طعم الموعد الأول واللقاء الأول بعد لحظات التعارف الأولى.. أفكار عديدة، هل تأتي أم لا تأتي.. هل تقبلت العرض، هل كان العرض أصلاً مقبولاً أو طرح بطريقة مقبولة..

- مرحباً،

- أهلاً.. إلى اين يؤدي هذا الشارع؟ ألا يصل إلى الصويفية في نهايته؟ ...

- نعم ومن الممكن لك ان تركب الحافلة الصغيرة، لتصل هناك..

- الحقيقة أنني أريد النزول إلى البلد.. وأنتِ،

- لا أنا ذاهبة إلى مخيم الحسين..

- بالمناسبة أنا أعمل قريباً منكم في جبل الحسين..

- مصادفة جميلة..

- أنتِ أجمل وأنا طبيب واسمي محمد ولدى عيادة في مجمع سكَنية..

- وأنا سميرة، طالبة في السنة الأولى في جامعة الاسراء، قسم آداب..

- تشرفنا بهذه المعرفة..

- نحن أكثر..

- يا ريت تشرفيني بزيارة للعيادة، دون ان تكوني مريضة بالضرورة..

تضحك : ان شاء الله، ولم لا!

التقطت الكلمة الأخيرة التي اندلقت من على شفتيها بسلاسة لأدعوها لتناول فنجان قهوة يوم الجمعة القادم بمقهى سلطان في الشميساني.. فكان بذلك موعدي الأول..

تتزاحم الأفكار وتنحشر في مسرب ضيق، رغبة شديدة في بناء العلاقة تعاكسها رغبة مضادة برفضها.. هل هناك امكانية لتقبل أفكاري، فلسفتي، مشاعري، أحاسيسي.. سيل متفجر أنا، وبركان خامد أنا.. لا تستطيع ان تستثيره الا امرأة معجزة، أنثى ليست ككل الاناث، سيدة تضرب بعصاها بحر قلبي لينشق نصفين فتعبره دون ان تبتل.. هل أطلب المستحيل؟ أم اطلب احلام المدمنين الذين يعيشون بين دخان الحشيش، أو أولئك الراقصين على أنغام ضجيج موسيقى العصر، التي تجعل من الرأس بالونا قابلاً للانفجار، موسيقى (الراب) و(الديسكو) و(السناب).. وكلمات الشاب خالد غير المفهومة أو بالأحرى التافهة.. هل السنوات الثماني التي تفصل عمري عن عمرها لها قيمة كبيرة؟ وأهمية؟ في بحثي الدائب عن الراحة النفسية، والتقبل، والتعبير، والتجلي عبر الآخرين، هل تكون هي الفتاة المناسبة، والوسيلة الصالحة؟ آه.. من وجع رأسي، وقلة نومي.. آه من ألوان حزني وأصوات شجوني.. عبئاً عاطفياً قد تكون هي!.. أي (عبء) وأي (راحة) نفسية وعاطفية.. وهل يتعانق الضدان في نفسي ليضعا رغبة البناء ورغبة التفلت من الارتباط

في نفس النسبة المئوية؟!.

في مقهى سلطان وعلى الشارع المزدحم بالشباب ممن هم دون العشرين.. وحدي جلست.. كل العيون تحدق بي.. شعر بدأ يخطه الشيب، وذقن حليق وشارب ودعته منذ عشر سنوات.. نظارات سوداء، وديوان لمحمود درويش.. لحظات الترقب متعبة، تفتت الأعصاب وتجعل المعاني والأفكار والرؤى تتداعى وتتصادم.

وعود على بدء، هل استطيع ان أديم هذه العلاقة؟ كيف اتحاشى برود الطرف الآخر؟ ولربما رفضه! وهل يجوز أن أضع أمداً محدداً لهذه العلاقة المقبلة.. أنزوة هي؟ وهل توافق أو ترفض طلبي لتكرار اللقاءات؟!.. وقبل هذا وذاك هل ينجح موعدي الأول.. كما نجحت لحظات التعارف التلقائية الأولى التي حصلت بيننا.. مرت ثلاث طالبات من المعهد القريب في المنطقة.. معهد صوت وصورة، تعلو أصواتهن بالضحكات الرنانة، والكلمات كما زقزقة العصافير، أرفع رأسي من بين ثنايا الكتاب، وفي وجوههن بعد أن انزع نظارتي السوداء في وجوههن التي ملأتها الضحكات والابتسامات أتأمل من بعد، وبتحديق يبدو أنه أثار احداهن.. فخفضت من صوت ضحكاتها وكذلك فعلت صاحبتاها، وانقلب الحديث بينهن في مشيتهم المتهادية إلى تهامس.. حتى غبن عن عيني، ليعود صدى ضحكاتهن ثانية يفرقع في سماء الشميساني.. سيارات ذاهبة وسيارات آتية.. ورجال ونساء يترجلون، وبعض الأطفال.. يتجهون للمطاعم المنتشرة على الرصيف المقابل.. أوف، لقد

تجاوزت الموعد المضروب للقاء نصف ساعة.. لقد أخذتني الأفكار وانستني الوقت، وأنا الذي لم انتظر في كلية الطب حتى بروفسور (الأناتومي) الذي كان مروره في بهو الكلية يصيب جل الطلبة بالاضطراب، وينتظرونه لو تأخر عن المحاضرة .. محاضرتين زمناً، كيف انتظر مَن لمرة واحدة أعطيتها موعداً.. ومن المرة الأولى تأخرت؟.. يا حيف على الرجال (أهذه آخرتها).. أتركها والذي خلقها خلق غيرها..

وهل أنسى رقتها، وجمال قامتها وعودها الفارع رقبتها المرمرية، عينيها الواسعتين، شعرها الثائر الذي يطوق رأسها وجوانب وجهها ورقبتها، ومفرِقُه من منتصف الرأس.. كيف أنسى ذلك وإن نسيته لا أنسى ذلك الجزء المتسطح من أنفها فوق الأرنبة بمقدار عقلة والذي يعطيها تميزاً قد يراه البعض عيباً، وأراه أنا في تميزه جمالاً يزيدها على جمال.. أ تراني نسيت أناقتها في تلك اللحظات الصدفة.. وهي ترتدي تلك التنورة الخضراء الواسعة والبلوزة الصوفية الجميلة والتي أعطت لعينيها ألقاً امتزج مع تورد خديها، وحمرة شفتيها المكتنزتين الثمينتين فأحاطتها بدوائر وهالات من نور... وضحكاتها والـ (لم لا) تلك التي قالتها في لحظات التعارف الأولى.. في الثلاثين تصبح الأفكار في حركة تسارع قد تسبق سرعة الضوء، كل فكرة منها تحاول الوصول قبل غيرها إلى المسرب.. ذلك المسرب الوحيد، الضيق في الذهن.. لتختار مقعدها أو موقعها بين ملايين المعاني و الفكَر.. ويخضع الانتقاء في ذهن رجل مثلي للعلاقة بين الفكرةَ وافتقادها، ومدى تحقيقها للهدف..

المعنوي، النفسي.. في أن أشرك معي بهذه الأفكار الغزيرة تلك الهيفاء التي بنيت على اللقاء بها في موعدي الأول جبالاً من الأحلام..

«شو تشرب».. بعد ساعة من الجلوس.. لوحدي ورواد المقهى بدأوا يتدفقون مثنى وثلاث ورباع، وبعد فنجان القهوة الثاني.. نطق النادل تستحثني نظراته على الطلب أو الانصراف.. ولما لم أجد بداً من اختيار أحد البدائل.. طلبت صك الحساب.. فمن الأفضل أن الحق بموعدي الثاني.. أو أصله مبكراً.. حيث أن زيارة أحد مرضاي، ولا سيما أنه من أصدقاء العمر.. تعد واجباً عليّ كطبيب وحق له عليّ كصديق.. دفعت الحساب، وسحبت الكرسي الأبيض إلى الخلف ثم اعدتها برفق ليُلامس ظهرها حافة الطاولة وليسقط بروفسور (الأناتومي).

تونس ٢٦/١٢/١٩٩٤

الباقي ثمانمئة فلس

الشارع يكاد يخلو من المارة، والسيارات في هذا الشارع الطويل تعد على الأصابع، الحركة هادئة، والأصوات تُميز بسهولة حيث لا ضجيج ولا صراخ ولا تلوث.. فاليوم هو يوم العطلة .. سوى عدد من رواد المقاهي القليلة غير المقفلة.. وبعض المارة والمتسكعين، وأنا وهي لا يوجد أحد.. الطريق يغتسل بماء السماء الفضي بعد فترة انحباس أضرت بالزرع والضرع ودعت الفلاحين في انحاء البلاد لاقامة صلوات الاستسقاء طلباً للغيث النافع.. يتساقط المطر خفراً حيّياً.. رذاذاً يزداد رويداً رويداً ليتحول زخات متفرقة متتابعة في دورات بينها فواصل من الانقطاع.. نستغلها أنا وهي لنعبر الطريق من تحت مظلة هذا المحل إلى ذاك.. وعند أول هاتف نتوقف هل معك فراطة؟ هكذا قالت.. نعم، أتريدين مائة فلس أم مئتين... أخرجت من جيبي كل نقود الصرف وكانت خمسمئة فلس أي خمس قطع.. أخذتها كلها دون تردد ومن غير بعد أذنك أو شكراً.. عجباً! لتتصل بصديقتها وتعتذر لها عن موعد.. المطر ما زال يتساقط ثم ينهمر، من بعيد أطيل النظر اليها هي في داخل الحانوت وأنا خارجه.. ما أجمل هذا المحيا، وما أرق وأدق صنع هذا القوام.. لم تتعد معرفتي بها الأيام القلائل.. شعرت بالانجذاب لها منذ اللحظات الأوَل.. بكل

جوارحي.. أنهت المكالمة وما أظنها استخدمت أكثر من قطعة نقدية واحدة.. وقفنا قليلاً تحت مظلة الحانوت إلى، أن خف انهمار المطر لدرجة الرشرشة والرذاذ.. فطوقت رأسها بغطاء الرأس مما أضفى على صورتها مسحة جمالية إضافية.. وتابعنا المسير باتجاه فندق النخلة الذي يقيم حفلاً ساهراً يحييه مطرب معروف.. في الصفوف الأمامية ألفينا أنفسنا، وبعد تأخير لسلطان الطرب وشيخ الشباب مما أثار ضيقي وحنقي.. وزاد وجهها بهاء وإشراقاً، أخذ المطرب المعروف يتسلل إلى الركح بين انفعالات الحاضرين وتصفيقهم.. وبعد مقدمة موسيقية طويلة ومملة كان يمثل فيها دور مايسترو الفرقة، بدأ يزعق ولا نعيق الغراب.. بكلمات لا مفهومة وألحان لم أتبين منها إلا خوفي من انخرام طبلة اذني.. وهي تهز رأسها للأمام والخلف، وتنقر بأصابعها على رجليها.. وأخيراً انهى المطرب المعروف وصلته الأولى وهو وأنا نتصبب عرقاً، هو من كثرة الصراخ وأنا من شدة الضغط القابل للانفجار.. رجوتها الخروج مرة تلو مرة قبل ان نضطر لاستكمال السهرة مع ذاك المستعمر لآذاننا، وليعوضنا الله بالدنانير الثلاثين التي دفعتها نزولاً عند رغبتها.. وعلى مضض وبعد طول تردد منها.. انطلقنا وفيّ شوق عميم للحرية.. أنا على الأقل هكذا كان إحساسي، بينما كانت هي كمن انتزعت من محراب تعبدها.. أو هكذا ظننت.. قالت لي أنا ديمقراطية.. ولما سمعت رأيي بذاك النزق الدخيل على صنعة الطرب هاجت وماجت ونعتتني بالتخلف.. حسناً! أنا مستمتع بتخلفي هذا مع الحان السنباطي وأغاني عبد الحليم،

وكاظم الساهر.. فلأجلها ضحيت بأذنيّ لساعة ونصف حتى أوشكت دماغي على التبعثر.

المطر ما زال يتساقط، وهي كطفلة بريئة تلهو.. تتباطأ بالمشي تحت الرذاذ.. وتقول ما أجمل المطر، أحبه حتى الثمالة.. واتمنى ان يغسلني ويبلل جميع أعضاء جسدي..

يا ويلي، أأصاب بنزلة برد لتسعد من أعجبتني قامتها واستدارة وجهها ولم أعرف منها حتى حينه إلا تلك المغرمة بذاك المطرب، والمطر المنهمر ولهو الأطفال.. ولكن لا بأس.. فالاعجاب قد يتطور باللقاء والتبادل والصراحة والمشاركة.. انفعلت فجأة وانتفضت.. يا لطيف! هكذا صحت في نفسي.. حيث لا مبرر لانفعالها ورعشتها، فالحديث عن ذاك المغني والذي أدعو الله أن يسكنه فسيح جحيمه قد انقطع بشكل لا ديمقراطي ايذاناً بنهاية ما لم يبدأ.. أخ! لقد نسيت أن اصرف فاتورة الدواء.. قالت

فرددت عليها: يا ساتر ان شاء الله خير، هل أنت مريضة...

أجابت: نعم وكلما رأيت صيدلية اتذكر ضرورة ان اشتري الدواء ثم انسى فعل ذلك.. فقلت: بامكانك شراؤه الآن والصيدلية أمامنا..

فقالت: نعم.. صحيح ولكنني لا أملك الآن ثمن الدواء.. وعلى اعتبار أنّ حاتم الطائي عنوان العرب في شدة السخاء والكرم.. ومن أحيا فضيلة فكأنما أحيا كل الفضائل..

قلت لها: أنا أدفع الثمن.. ولو!

وأحجَمْت عن اكمال العبارة بأن ترد لي المبلغ في المرة القادمة

أو حين مَيْسرة.. فبقيت العبارة مبتورة.. ودخلنا الصيدلية وفتحت هي شنطتها الكبيرة المعلقة على كتفها ثم الشنطة الصغيرة داخلها لتخرج منها فاتورة علاج قدمتها للصيدلاني.. ودون لو سمحت أو لو تكرمت يا سيد خالد، وخالد هو أنا طبعاً.. أفسحت لي المجال أمام الصندوق لأدفع.. دون أن ترمش عيونها الكحيلة أو تتورد خدودها الجميلة.. وأنا زيادة في الكرم وضعت المبلغ بيدها لتدفعه هي بنفسها.. ولما كان المطلوب عشرة دنانير ومائتي فلس، وكانت قد قضت سابقاً على ما أملك من صرافة، نقدتها عشرة دنانير ورقة واحدة واتبعتها بدينار.. فقامت بدفع المبلغ.. وفي ذهني أن أترك لها الثمانمئة فلس المتبقية أجرة (التاكسي) الذي سيقلها للبيت.. الا انها في حركة لم الاحظها دست الفلوس الثمانمئة في جيب سترتها.. دون بعد أذنك أو بالسماح منك أو شكراً وخرجنا من الصيدلية وكأن شيئاً لم يحدث!!.. آه.. هكذا اذن، تستغفلني وتتطفل على ظهر قلبي الذي كنت سأقدمه لها على طبق من ذهب، ابتسمت هي دون مبرر يذكر وبدت منشرحة، أما أنا فذهلت وأصابني الوجوم!

تونس ٢٧/١٢/١٩٩٤

هل تتصورونني بدون ذيل!!

الدنيا شتاء والبرد القارس المخيّم يُقفِر الشوارع فلا يُرى فيها الا ذوي الحاجات.. يرومون محلات الخضار أو السمك أو الخبازين.. أو يصطفون في محطات الوقود لتعبئة مواقدهم.. طويلة جداً هي ليالي الشتاء.. ولا يُبعث فيها الدفء الا الحنان العائلي والقرب والتواصل بين الأهل، ان التحلق حول مدفأة الكاز أو تلك التي تعمل حديثاً بجرة الغاز.. أصبحت من طقوس ليالي الشتاء لدى عائلات (المدينة)، يسخنون عليها أرغفة الخبز، وابريق الشاي.. وحتى ماء الاستحمام في قدر صغير للطفل الوليد.. ولا يحس بطعم الكستناء المشوية فوق الموقد الا مَن افتقد طعم الدفء العائلي رغم ارادته.. واشد منه ايلاماً من افتقد ذلك في غربته التي خلقها بارادته في بلاد الغربة.. فما أخالك الا تندب حظ أولئك القاطنين في بلاد الصقيع في الشمال الأوربي والذين يقضون حياتهم يحلمون بيوم مشمس.. فلا يفلت منهم يوم تضيء به الشمس أيامهم الا وانطلقوا في كل مكان حتى في الحدائق العامة متخففين من ملابسهم انصاف عراة لا تستر أجسادهم الا ملابس داخلية أو عراة لا تلتف حول أجسادهم الا ساعة أو سوار في اليد أو نظارة داكنة على العينين.. يتبطحون على العشب الأخضر (ربي كما خلقتني).. متبعثرين في أوضاع مختلفة كل ينشد

الحرارة والدفء الالهي.. وإن حصلوا عليه، وقلما يحصلون .. تظل حياتهم داخل الأربعة جدران باردة، باردة فلا عواطف ولا هموم مشتركة ولا حنان. ولا... اجتماع أم بابن ولا والد بولد.. ولا رجل بشريكته أو شريكه!!.

بعد ان طردت من الكويت اثر حرب الخليج التي دفع ثمنها الانسان والأرض وأنا.. حيث حطموا علاقات الجوار بين دول المنطقة وقطعوا أواصر المحبة والمودة والنسب والأصل بين سكان الكويت والعراق.. وأشقوا ضمن من أشقوهم أولئك المعذبين دوماً في الأرض.. الفلسطينيون يتنقلون طول عمر أجيالهم من هجرة إلى هجرة.. دون ارادة منهم.. فلم يكونوا هم السبب أو المسبب ولا العلة أو الداء الا ان الجميع استمرأ ان يجعلهم دوماً وقوداً للمحرقة فتشردوا في طول وعرض أمة العرب وبلادها حتى وصلوا معي إلى الشمال الأوروبي.. وكما أحببت أنا الخيام أجبِروا هم على حبها.

في الكويت وقبل ان أعرف المعنى الحقيقي للبرد والصقيع والجليد والثلوج...كانت نفسي الحارة المتقدة لا تنفك تتبرم بحرارة جو الخليج.. التي لولا نعمة التكييف لأحالت الحياة هناك إلى جحيم مقيم.. فالبلد صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا ماء، العمارات الخرسانية المتكدسة في رقعة ضيقة جداً من البلد التي يقطنها ضعف الكويتيين من الأقوام الأخرى.. تشغل مساحة لا تزيد كثيراً عن مساحة جزيرة فيلكا الكويتية نسبة لمساحة كامل البلد.. في هذه الصحراء القاحلة شاءت حكمة ربك ان يقذف سكان هذه الأرض بنقمة المال، فيشمئزون ممن

عداهم، ويترفعون عمن لا يلبسون الدشداشة، ويتهكمون على من لا يضع على كتفية العباءة المقصبة.. ويركلون بأرجلهم كل من يذكرهم بماضيهم.. ماضي اجدادهم العظام، اولئك الذين حملوا على ظهورهم الماء من البصرة حتى القرين.. وعلى ظهري أيضاً.. لا أقول كلهم وانما جلهم.. فالدنيا إذا خليت بليت، وأبناء الأصول فيهم بقوا قبل الاجتياح العراقي واثناءه وبعده أبناء أصول وَرّثوها لفروعهم فلم يبخسوا بما استطاعوا ولمن استطاعوا.. لم يبخسوه حقه.. قلت انني في هذا البلد وقبل أن يحاكموني ويطردوني كرهت الحر وعشقت البرد والقر والآن وأنا في بلاد الغربة الباردة المتعبة.. لا أتمنى الا أن أموت في ثنايا صحراء بلادي العربية الممتدة من الخليج العربي إلى المحيط المغربي.

في رحلة طويلة قطعتها.. كانت (أوسلو) مهجري ومستقري وأصبحت صبحي ومسائي، يومي وغدي، حاضري ومستقبلي ما أن وطأت قدماي الأماميتان أرض النرويج حتى حملق بي رجال الجمارك والدرك وقادة الشاحنات على الحدود، فما أن اكتشفوا وجودي مختبئاً في إحدى الشاحنات حتى انهمرت على الأسئلة.. رجال يدخلون وغيرهم يخرجون، منهم من جاء عليّ ليتفرج ومنهم المستغرب أو المستهجن.. في معسكر المهاجرين وضعوني.. ومع الرعاية الكاملة .. أكل وفير.. وأصناف لم أحلم برؤيتها فما بالك بتذوقها وقضمها وطحنها وبلعها وهضمها.. ومشروبات مما لذ وطاب ومصروف جيب اعتذرت عن تسلمه لعدم حاجتي إليه.. وما أن مرت علي

شهور ستة حتى أخرجوني من المعسكر إلى الحياة العامة.. أكلت فشبعت وشربت فرويت.. كلمة بذيئة لم أسمع.. الا ان برودة الأيام وعمق الاغتراب كان يوجعني ويحبب اليّ حتى أيام السجن في ضاحية السالمية من ضواحي مدينة الكويت.. المدينة الوحيدة في هذا البلد الصحراوي الثري.. حيث لا قرى ولا مدن غيرها.. في اليوم الأول الذي دخل فيها المتحالفون على سرقة أرض الكويت وأهلها.. نفطها، فرحها، عروبتها، جيرانها في اليوم الأول لوصولهم كنت أتجول مطمئناً أنا العربي الصميم أنه لن يصيبني شيء.. فلن يحصل لي مكروه، فأصحاب الاجتياح سامحهم الله أخوتي، والعائدون من سكان هذا البلد سامحهم الله أيضاً أحبتي.. ومهما حصل من عداء بين الأخوة والأحبة تدفنه رمال الصحراء، فلا داحس والغبراء ولا حرب البسوس عبّرت عن شيم العرب أصحاب حلف الفضول وشرف النسب وكرم المحتد وأنا رمزهم الأبدي.. يختلفون ويتصالحون وأنا بينهم شاءوا أو أبوا لا يُعرفون الا بي...

بعد طول تعذيب.. من أخوتي سامحهم الله، ثم أحبتي سامحهم الله وبتهم العمالة مني لصالح الأول من قبل الثاني، وللثاني من قبل الأول.. حملوني في شاحنة وعلى الحدود الجديدة التي انتصبت بين الكويت والعراق قذفوا بي.. قوائمي متورمة، ورآسي لا يكف عن التمايل يمنه ويسرة من الكميات المفرطة من الكهرباء التي أجبروني على التهامها.. وجوانبي تتراوح فيها الألوان بين البنفسجي والأزرق والأخضر فالأحمر والبرتقالي وكأنني شاشة تلفزية في بثها التجريبي.. أما عن ذيلي فقد

قطعوه، وهل تتصورون مثلي بدون ذيل؟!.. ولولا أنني احتفظت به وأعاده أصدقائي من أهل النرويج في عملية طويلة مكلفة ودقيقة.. لبقيت طوال عمري رمزاً ملفوظاً من أصحابه.. ومشوهاً في أعين البشر وحتى في أعين الطيور.. أما عن ظهري فلقد كاد يستقيم كما الخشبة وأنا الوحيد الذي لا تعيبه حدبته ولا يعترف الا بالجهاد ذروة للسنام.. المهم أنهم في مخيم الـ (بدون) ألقوني، مع أولئك الذي ضاعوا على حافة الحدود يعيشون شظف العيش حتى أيام انخداعهم باستخدامهم قعَلَة من الدرجة العاشرة في جيش الامارة، أو في الجيش الشعبي.. معهم عشت أياماً معدودات.. وبعد عناء شديد رق لحالي أحد الأجانب في مفرزة الأمم المتحدة التي تراقب الحدود بين البلدين.. فهُرّبت عبر مختلف الحدود العربية إلى النرويج.. ومن هناك أكتب اليك يا أمي (الناقة) يا من بين أحضانك أخواني من صغار.. الجِمال والعيْر يعيشون.. قصتي عشت جزء منها، وجزء لم تعلميه سطرته لك في هذه الرسالة القصيرة.. يا أمي الحبيبة الجميلة في نجد، وفي صنعاء، وفي الفجيرة، وفي عمّان كما في تبسة وفي تطاوين، وفي نواق الشط ومراكش التمس منك العفو والمغفرة على عقوقي بالابتعاد عن خيمتي وصحرائي.. عن دفء الأيام التي عشتها معك حول مدفأة الكاز أو مدفأة الخشب أمام خيمة الشعر على أرضنا الذهبية الغالية.. وأسألك العفو والغفران على عشقي للحرية والديمقراطية وحب الانسان.. فما أنا الا (جمل) كسب حريته وفقد جماعته، كسب حلمه بالبرودة ونبت مكانه حلم بالشمس،

فقد لذة قهوتك.. ولم يستطعم النسكافيه بالحليب.. الا انه بقي على حبك، وحب الأرض من عدن إلى حيفا صامداً لا يلين.

تونس ١٩٩٤/١٢/٣٠

روح واحدة

ما ان تغيب عنهما العين، حتى تحن للقياهما، ان تركتهما ساعة، حاصرتاني في فنجان القهوة، وعلى صفحات جريدة (الصباح) اليومية، وفي أحلام اليقظة، ولا تتركاني حتى في المسافة القصيرة الفاصلة بين البيت والشركة، عشر دقائق فقط مشياً على الأقدام تفصلني عن موقع الشركة.. تمر هذه الدقائق العشر تارة سريعة وأخرى أشد بطئاً من سير السلحفاء.. وكلما مر خاطرهما في ذهني.. تقافزت أمامي لحظات السعادة القصيرة التي عشتها معهما.. كتقافز الشياه في المرعى الرحيب الخصيب، الواحدة تلو الأخرى كانتا تجريان، تركضان حتى ازعجتا بفرحهما ومَرَحَهما وانبساطهما ابنة الجيران على اعتاب التخرج في الثانوية العامة، التي تقطن في الشقة السفلى.. تحت الشقة التي عاشتا فيها معي وزوجتي أياما قليلة ولكن كثيرة الفرح، عميقة المرح.. بديعة اللحظات والثواني والدقائق..

هما اختان.. آيتان في خفة الروح، وظرف اللُقْيا، وجمال المحيّا، صنعهما الخالق فأبدع، وصورهما على هيئة الطير في شكل بشر وربما أروع.. دقة في الملامح، ونعومة في القسمات، عذوبة في الصوت، ليونة في الحركات، مَرَحْ وفَرَحْ.. هذان اسماهما، الأولى في الثالثة من عمرها والأخرى عند آخر ما رأتها العينان لم تكمل عامها الثاني.. كنت قد لمحتهما ضمن

جَمْع من الأطفال في ملجأ للأطفال.. وجذبني اليهما إضافة لجمالهما وخفة روحهما.. شدة التصاقهما وارتباطهما ببعضهما البعض حتى يخالهما الرائي جسدين منفصلين لروح واحدة حلت فيهما معاً.. لم أصل هذا الملجأ الا بعد الحاح شديد من زوجتي العاقر على ضرورة تبنينا لطفل.. بعد فشل كافة الحلول الأخرى من أدوية، وعمليات، وأطفال أنابيب وحتى الشعوذة وخلافه مما دُفِنَ من علاجات، أو رُقِنَ في صفحات الكتب عن علاج العقم لدى النساء.. لم يبق طبيب للنساء في طول تونس وعرضها وفي ايطاليا وفرنسا المجاورتين الا وأصبحنا أنا وزوجتي نحتفظ بصداقتنا له.. وقد امتلأ درج مكتبي بعشرات البطاقات لأطباء مختصين بعلاج العقم وأمراض النساء من مختلف الجنسيات.. لدرجة أنني أصبحت داخل الشركة بين أصدقائي المهندسين علماً من أعلام المعرفة في تحديد طبيعة تخصص ومدى دقة أو شطارة هذا الطبيب أو ذاك في علاج أي نوع من أمراض النساء.. المهم لم يتبقَ بعد عشرين عاماً هي عمر زواجنا إلا حلٌ وحيدٌ تجلى بـ (التبني) فكانت مرح وفرح.

أصبح الشعور بفراقهما طاغياً لدرجة انني وزوجتي أدمنّا ارتياد أماكن الترفيه واللهو التي دأبنا على ارتيادها لأجلهما منتزه سيدي بلحسن، أماكن الترفيه والمطاعم في المنار والمنزه السادس وقصر البحيرة وتلة سيدي بوسعيد، وحلق الوادي، وحديقة البلفدير، ومتحف باردو، وحديقة الحيوانات التي لم نَمَلّ من دخولها مراراً وتكراراً نُسَلِّم لهما على الغزال حبيب الصغرى وعلى الدب صديق الكُبرى.. في السيارة ومن مكان

إلى آخر كانتا تقلبان جوّنا صخباً ومرحاً حتى أصبحنا فُرْجَة للمارة وقادة السيارات الأخرى.. ولربما كان هذا السبب في وفاة والديهما بالذات على الطريق الساحلي الطويل الممتد من جنوب لبنان إلى شماله مخترقاً مدنه الرئيسية وفي الجزء الواصل بين صيدا وبيروت وقبل ان تبدو بيروت عبر ضاحية الأوزاعي.. كانت مرح وفرح في دار الحضانة لا تهدآن رغم صغرهما، ولا شك عندي ان والديهما كانا مبهورين بهما أو يفكران أو سارحين في طريق العودة من صيدا حيث شاركا في عزاء صديق قديم إلى بيروت حيث لم يمهلهما صاروخ الطيران الوحيد الذي احتل جوّ لبنان من ألا يُدْفَنا تحت رمال الطريق بحيث لم يتم التعرف عليهما الا من أوراقهما الثبوتية.. مع صعود الطيران في سماء البلاد لم يتمكن الزوجان من الانحراف عن وسط الشارع بعيداً عن السيارة العسكرية التي كانت تخطر أمامهما فأصابتهما القذيفة الصاروخ وحادت عن هدفها لتحقق متعة المحتل الأبدية في مزيد من الدماء والعنت والشقاء للمحتلين.

في شوارع العاصمة التونسية أقود سيارتي تراودني كل هذه الخواطر، ولا تغيبان كلاهما عن مخيلتي، فالسعادة من أثمن مالا يشترى في هذا الوجود.. لطيفة، جميلة، رشيقة وأيضاً عاقلة رغم صغر سنها.. هذه مرح، وان كانت الأخرى أكثر صخباً وضجيجاً محبباً وأكثر اجتماعياً، فان سلاسة نطق الأولى وطلاوة عباراتها القصيرة الجزلة كانتا تضيفان عليها هالة إضافية من الجمال.. ما أكثر ما كسرتا من فناجين، وقضيتا معاً أو فرادى على صحون وبعد كل عملية، تسرعان

كلّ إلى سريرها معلنة مسؤوليتها غير المباشرة عما حدث، وبشكل تضامني عز نظيره في مجتمع الكبار.

دأبت زوجتي على تأنيب الصغرى (فرح) كلما تبولت على نفسها في الفراش فوقعت (مرح) الكبرى في مأزق الدفاع عن اختها.. روح واحدة في جسدين صغيرين هما، ان أنّبت الأولى تضايقت الثانية، وان زعلت الثانية تجهمت الأولى ولا تسمع ضحكات لإحداهما.. فاما ضحكات للاثنتين والا فلا.. صحوت في أحدى الليالي على صوت تهامس في غرفة الصغيرتين، وصرير أبواب، وبكاء صامت.. دَلَفْت إلى الغرفة المجاورة.. واذ بفرح تمسح بكمها دموع عينيها البديعتين، ومرح الكبرى تطيب خاطرها وتربْت على كتفها وتقول لها: لا تخافي.. انتهى كل شيء.. بقعة ماء كبيرة في وسط الغرفة، وملابس داخلية مبللة في الحمام.. لقد ابدلت مرح ملابس اختها الداخلية المبللة، وجففت موقع البلل في الغرفة كي لا تتعرض للتعنيف والزجر من زوجتي.. روح واحدة في جسدين.. ان أمْسَكتُ إحداهما لأرفعها من تحت ابطيها وأطوحها فيُ الهواء قاذفا بها إلى الأعلى أو مؤرجحاً للأمام وللخلف أو مدّوراً لها من مركز قدمي على الأرض.. الا كانت الأخرى وبطلب من الأولى.. بل والحاح شديد منها لأن تنال نصيبها من الفرح والمرح وبنفس الكيفية والقدر.. في السيارة وفي شارع الحرية وأنا أقود السيارة.. منفرداً هذه المرة، غاب مني الوعي.. لأفتح عيناي على دموع زوجتي على خديها.. تتمتم بكلمات بالكاد اسمعها تدعو فيها للصغيرتين.. ولي بالشفاء من

اصطدام سيارتي بأخرى الزمتني الفراش في (مصحة التوفيق) عشرة أيام.. لقد كان هذا الحادث بعد إيام قلائل على فراق الصغيرتين عندما جاء عمهما من أمريكا لاستلامهما بعد بحثه الطويل المضني، حيث لم يكن لهما أحد في لبنان.. لقد تركتا فراغاً موحشاً مما جعل الفكر مشغولاً والقلب مهموماً والعقل شارداً والجسد معلولاً.

تونس ٢٧/١٢/١٩٩٤

في الطريق إلى بغداد

تحت التيار الشديد من الماء البارد، يتدفق ليبلل جسده المتعب والمتسخ إلى درجة العفونة، دقائق من الراحة والانتعاش كانت كافية لغسل أدران الجسد الموجوع.. مدراراً ينصب الماء على فروة رأسه حتى يخترق كل الصور والمناظر والأشكال والذكريات التي أقامت في حيز ليس بالقليل في ذاكرته.. والماء ينساب على كامل أعضاء جسمه المتوجع المنهوك. تناسى جروحه وقروحه وتورم أقدامه من آثار المسير الطويل.. ثمانية عشر يوماً قضاها لم يعرف للنوم طعماً.. ولا للراحة شكلاً.. ولا للطعام مذاقاً.. فجاع منه البطن.. وتورمت منه الساقان والقدمان ولم يسلم جسده من أنواع متباينة من الجروح والقروح.

منعش هذا الماء المتساقط على أحزان الروح وأوجاع النفس عسى ان يهدئها وينزع منها حيرتها ويعيد لها صفاءها.. هكذا كان يحدث عبد الفتاح نفسه وجسمه يقطر تحت تيار الماء البارد المتدفق بغزارة.. متمنياً الا تغيب منه هذه اللحظة بعد ان التقطها.. فالسعادة شعور لا تلبث ان تفقده ان علمته وحددته، يقبل على الانسان محطماً التعب والنصب، ومزيلاً حالات القلق أو الأرق، وممعناً في تقديم النسيان وصفة طبية لكل من أثقل الزمن كاهله..

لم يصل عبد الفتاح إلى دار السلام.. عاصمة التحدي..

ودرّة بلاد الرافدين، وموطن الرجال الأفذاذ عبر تاريخ الأمة المديد الا بعد أيام ثمانية عشر قضاها يكابد المشاق ويركب الصعاب.. بين عدو ومراوحة.. وبين مشي سريع وتوقف ومشي بطئ وانبطاح على الأرض.. بين نوم متقطع.. غفوة.. لحظة.. عين نائمة وأخرى قائمة فحياة الانسان في حالات الخوف والفزع تجبر الانسان ان يكرس جل طاقته أو ما يتبقى منها ليصونها.. لا الجوع على قساوته ولا التعب على شدته.. ولا الألم على صعوبته.. ولا النَفْس على تفتتها تمنع الانسان من التشبث حتى النهاية في النفس ما قبل الأخير.. وان خرج تأوهات وزفرات حارقة.

في الطريق الممتد من قرية الجهراء عبر المطلاع والعبدلي حتى الحدود التي رسمها الانجليز في شمال الخليج العربي لتصنع دولتين جارتين كل ما فيهما جامع مقرّب.. تواد وتراحم ونسب وتاريخ وجغرافيا وعروبة ولغة وحتى لهجة متقاربة.. على هذا الطريق الذي أصبح المرور فيه محالاً إلا على الأشداء أو المتهورين.. تحول إلى طريق الموت إبان حرب الخليج الثانية.. يومياً يدك بأطنان القذائف والصواريخ، لا تميز بين جندي أو مدني.. بين رجل وامرأة أو بالغ أو طفل.. فالتكنولوجيا عمياء ولا تبصر الا بعيون البشر.. على هذا الطريق الموحش المقفر الصحراوي كانت تسير السيارات والشاحنات هادئة مطمئنة، واعدة هانئة.. تصل ما قطعته فيما بعد صواريخ وقنابل الأمريكان في مطلع العام ١٩٩١.. قطعت التاريخ ورسخت الجغرافيا وحطمت العروبة وقضت على كل بارقة أمل في عودة

النسب والتواد والتراحم.. على هذا الطريق كان عبد الفتاح منطلقاً بسيارته ترافقه زوجته الشابة وولده الرضيع.. على طريق الهروب الطويل من جحيم ما سيكون بعد ان تضع الحرب أوزارها.. مع انسحاب القوات العراقية.. ترك المهندس عبد الفتاح الموظف في شركة الغانم أعماله ومنزله ومتاعه وآثر الا يقع بين يدي أولئك العائدين الممتلئين حقداً وضغينة.. وبسرعة جنونية انطلق من بيته المتواضع.. شقته في الدور الثاني في ضاحية (الجابرية) الكويتية باتجاه الشمال.. وما ان تجاوز بسيره الاشارة الرابطة بين الدائري الرابع وطريق السفر الممتد من شارع المغرب حتى بانت له عمق المأساة وهول الحرب.. جثث ملقاة على سطح الدبابات أو تحتها أو ملقاة على جنبات الشارع.. الدائري الرابع يمتلئ بالسيارات والشاحنات والمصفحات التي نفد وقودها فتركها أصحابها وانطلقوا مع مَن بقي يحتفظ بوقود.. ومَن لم يجد مَن يقله سار يحث الخطى نحو الشمال.. جنود ومدنيون خائفون من بعض الكويتيين والعراقيين والاردنيين واللبنانيين والفلسطينيين وغيرهم والمغضوب عليهم فئة (البدون) أي أولئك معدومي الجنسية من سكان بادية الكويت لا يعترف بهم شمال الحدود الفاصلة ولا جنوبها.. ظهرت حقيقة الحرب التي لا تعطي للانسان وحياته أي معنى.. وتُفقد أي هدف قيمته متى ما كان الدمار نتيجته.. لا سيما بين أبناء البطن الواحدة.. منطلقاً بمركبته وزوجته تغالب نعاسها وتحاول تهدئة طفلها الرضيع الذي يبكي. بحرقة من أحس الخطر وتوجسه ووجد ان لا حول له ولا قوة..

خائفة ترتعد هي.. ومهموم مرعوب هو يقود سيارته بخط متعرج يتجاوز ما استطاع في ضوء القمر الآليات المتوقفة أو المدمرة والجثث المتناثرة والأشلاء المبعثرة.. أزيز الطائرات لا يتوقف.. ومحطة (السي.ان.ان) تزداد عملقة وغطرسة تنقل للعالم (نظافة) حرب متقنة لم تطل حياة انسان.. ولأجل الديمقراطية، والحرية، ومحبة شعب الكويت، وأطفال العراق وعيون جابر الأحمد.. تخوض (السي.ان.ان) الحرب نيابة عن كل المفجوعين الموجوعين على ضياع ثروة الكويت، وفشلهم هم دون غيرهم أبناء جورج واشنطن في التنعم بنفط الكويت وقيظ الكويت! وخضرة الكويت!.. صاروخ ينطلق فيقتل مائة طفل لا يساوون شيئاً مقابل برميل ذي سائل أسود اللون..! وصاروخ آخر يحطم أحلام الكويتيين بدوام الثروة كاحتياطي للأجيال القادمة.. لا يهم فهذه الأموال يجب ان تذهب لتلك الأمة التي لم تعرف الحياة الا بالقضاء على الهنود الحمر.. وصاروخ ثالث يخترق رأس من سوّلت له نفسه ان يزيل السياج، ويرفع الغشاوة، ويطالب بالمساواة.. ضحيتان متصارعتان شمال الحدود الانجليزية في رأس الخليج الفارسي.. العربي وجنوبه والثمن منهما وفي جميع الأحوال مضمون الدفع.. فشرطي العالم لا يقبل العمل الا وجيوبه منتفخة من جانبي الحدود.. ولا مجال للصلح أو التراجع أو الأخوة أو المساومة وعقد اتفاقات السلام بين الأشقاء.. فالسلام لا يُصنَع الا بين الأعداء فقط أما بين الأشقاء فعلى (السي.ان.ان) ان تصرّ على استحالته. يتجاوز قرية الجهراء الوادعة.. ببيوتها الصغيرة، وسكانها الكثر من

الآسيويين الذين لم يتبق منهم أحد.. ويبقى في الأرض مَن أحب الأرض.. أبناؤها من البدو عريقي النسب.. ومتجاوزاً المطلاع يبدأ (وادي الموت) أو طريق الموت يأخذ هيئته الحقيقية.. يعبث بمفتاح المذياع محاولاً سماع أخبار الانسحاب للقوات العراقية والتوغل الأمريكي ودول التحالف في جنوب وغرب العراق.. وهل دخلوا حتى الآن أم لا.. الا ان أزيز أسراب الطائرات التي تلقي بحمولتها السرب تلو الآخر يشوش على المحطات.. ويقلب الأرض بما عليها زلزالاً هادراً.. ومع كل اشتداد لصوت الطائرات ينبئ عن بدء القائها لقذائفها كانت السيارات على طول الطريق.. أو تلك التي ما زالت تملك الوقود أو سَلِمَت من القصف.. تقف على جانبي الطريق ليتراكض كل من فيها مبتعدين عنها.. ووراء أول كثيب رملي أو حفرة أو في خندق ينبطحون وكذلك فعل عبد الفتاح وزوجه وطفله مراراً وتكراراً.. فلم يستطع ان يسمع المذياع ولم يتخلص من هواجسه وخوفه.. فما ان ينبطح وبجانبه ولده وزوجته الا وتمتم بسورة من القرآن يدفع بها بلاء الأمريكان.. ويدعو الله السلامة لعائلته.. مع كل هزة ورجة يتناثر التراب والرمال وقطع الحديد والأشلاء في كل اتجاه.. وكل يظن ان ساعته قد قربت.. وما كان ذلك على عبد الفتاح ببعيد فدقيقة واحدة تأخرتها زوجته التي كانت تهم بالنزول من السيارة محتضنة طفلها كانت كافية لتناثرهما في سماء طريق الموت مع الرمال والحديد والأشلاء الأخرى.. تمزق جسداهما وتهشمت السيارة.. وعبد الفتاح من قريب ينظر بفاه فاغر وعقل طائر.. يتجمع

حوله عدد من ركاب السيارات التي تحطمت بفعل القصف محاولين تعزيته.. الا ان الدمعة تجمدت في عينه.. واستطالت وتصلبت حتى حجبت عن عينيه الرؤية.. قطع من الظلام تسير متراكضة أمام عينيه.. ولولا ارادة الحياة لديه لكان بأهل بيته لاحقاً..

جماعات متقاربة تسير، على امتداد ما تبقى من الطريق الذي تحول إلى فضاء شاسع للخردوات وهياكل المركبات بالعشرات لا بل بالمئات والألوف.. والكل بنظره إلى الطريق المرصوف شاخص.. كي لا يضيع ويعود من حيث أتى أو يقع في قبضة المتحاربين. بازاء الطريق محملين بالأدوات الكهربائية والأدباش والسلاح مئات من الجنود يمشون ومع كل توقف وتباطؤ وانبطاح... وتعب ونصب يتخففون من ادباشهم.. فتتناثرت أجهزة التلفزة والـ(ڤيديوهات) والمسجلات.. والملابس لتلحقها مع اشتداد القصف وازدياد القتلى.. حتى البنادق، فتتحول المسدسات على وسطهم إلى ثقل لا يحتمل على أجسامهم المتقرحة، المنهكة، المنهارة من عبء عظامهم ولحومهم التي تضغط بشدة على قصبات سيقانهم وكواحلهم وأقدامهم حتى أدمتها أو ورمتها.. ليصبحوا في خيار التحوط من الأبقاء على تلك القطعة الحديدية بثقل الجبال أو التخلص منها. مع مجموعة من هذه المجموعات التي يختلط فيها الجند بأفراد الجيش الشعبي مع عدد من المدنيين الهاربين من الجحيم المتوقع والانتقام المترقب من أصحاب عقليات الثأر والسلب والنهب والسبي الجاهلي.. معها يحمل عبد الفتاح اثقالاً يراها أضخم

وأعظم من كل الأحمال والأدباش التي تناثرت من الجنود على جنبات الشارع الرئيسي وفي ذاك الفضاء الواسع المميت.. يحمل في قلبه كمداً مكتوماً وألماً مقطوعاً ودمعة تحجرت حتى أغلقت مجرى الدمع وأوصدت بابه.. يلهث، أنفاس متقطعة، زفرات متلاحقة، قلب متوثب، حرارة شديدة، وعرق يتساقط بغزارة على هيئة الخيوط المتصلة.. حيثما ولى وجهه لا يرى الا مظاهر الدمار والخراب.. وان وطأ خندقاً أو انبطح على الأرض.. مختفياً وراء كثيب وحاول ان يغلق عينيه ريثما تنتهي الغارة.. في الدقائق القليلة التي يغلق فيها عينيه تَعباً محاولاً الاسترخاء أو أخذ غفوة، أو نسيان همومه، أو تناسي الهدير الصاخب للطائرات يمزق أستار السماء ويحدث فجوات في الهواء لا يرى الا وجه تلك الفتاة الصغيرة التي منحته أول ابتسامة انثوية يحصل عليها من عينين بعد عيني أمه فقفزت لتستقر في قلبه من البسمة الأولى.. في حفل زفاف صديقه المقرب.. لمحها.. تجلس مع صويحباتها في حياء وخفر.. في لطافة ولباقة تتفاعل مع صوت الموسيقى واغنيات مطرب العرُس يتمايل على الركح.. بيديها تتمايل على ايقاع الأنغام.. وتفرقع أصابعها في الهواء بخفة ودون صوت.. تضاحك رفيقاتها.. يتهامسن، يتكلمن يبتسمن ومنهن من يتعالى صوتها ضحكاً الا هي.. كلما اشتد الانفعال مع الموسيقى وأسرعت الفتيات مع الفتية إلى حلبة الرقص أمام الركح.. بقيت هي في مكانها لا تستجيب لدعوات الرقص.. تبتسم.. ترفع يديها في الهواء.. تميل بهما تفرقع بأصابعها.. من أول ابتسامة.. وجهتها إليه..

فلم يمر أربع وعشرين ساعة حتى كانت المعلومات كاملة عنها أمامه.. ولم تخيب ابتسامتها ظنه.. بنت الأصول.. تقدم لخطبتها لتموت بين يديه بقذائف الطيارات التي تمزق أستار السماء.. ولم يستطع النظر اليها.. لأنها أصبحت في ثوانٍ هي وطفلهما مِزَقاً متناثرة في المجموعة التي سار بركابها عدد ممن عرَفوه من صَحْبه الذين كانوا متواجدين بالمكان بعد فقدانهم لوسيلة نقلهم وشاهدوا سيارته وعديد المركبات تتطاير.. فعرفوه وساروا معاً.. لحقهم عدد آخر من المجندين العراقيين في الجيش الشعبي.. جامدو الوجوه يسيرون أو يبكون.. ومنهم من يندب حظه ويلعن ساعته.. وبقية تتمتم بالأدعية والاستغاثات من الله ورسوله وأوليائه يا رب.. يا محمد.. يا علي.. يا حسن ويا حسين.. يا فاطمة.. ولا مجال لتحديد الخطاب أو توجيه الدعاء أو تكريسه للواحد القهار.. حتى دموع ذاك المجند من الجيش الشعبي التي صبّت على ظهر عبد الفتاح اثناء انبطاح الجميع اتقاء لإحدى الغارات العديدة المتلاحقة التي ما كانوا يحتمون منها الا بالابتعاد عن أي معلم بارز وبالانبطاح.. حتى هذه الدموع التي صبّت مدراراً على ظهر عبد الفتاح.. كما ماء الدش البارد الذي ما زال يقف تحته.. وذلك أثناء انكفاء هذا الرجل فوق عبد الفتاح دون وعي يبكي بحرقة ويدعو علياً والحسين دون الله.. مما أغاظ عبد الفتاح وجعله يقلب الرجل بقساوة عن ظهره ويعنفه.. أقول حتى هذه الدموع وهذه الدعوات.. ما كانت الا انموذجاً وجب ان يكون حافزاً على الدعوة لتكريس رفضه.. وبلورة وعي قومي شعبي موحد..

هكذا ذهب التفكير بعبد الفتاح وهو يصيح بالمجند فوق ظهره.. ليكف عن البكاء وليتوجه بالدعاء مباشرة لصاحب الأمر.. وما كان يقصد بذلك الأمريكان بالطبع! أو لربما قصد!؟.

وفي مدينة صفوان العراقية الحدودية.. يلتقط عبد الفتاح وصحبه الأنفاس.. ويتهيأون للرقاد ومداواة اصاباتهم وجروحهم وأرجلهم المنفوخة أو المتورمة لا ينعمون بساعات من الراحة مع وضع الحرب لأوزارها.. واستعدادهم للانطلاق إلى البصرة الا وخبر المتمردين القادمين من ايران ينتشر مثيراً الرعب والفزع، خاصة وانه ترافق مع ذكر لمجازر وجرائم وتقطيع للأيادي والأرجل، وتمثيل بالجثث من قبل أقوام المتمردين...أو الثائرين والمنتفضين كما أفادت محطة (السي.ان.ان) ممن استطاعوا التشبث بشاحنة أقلتهم إلى بغداد.. حتى ازداد أولئك الذين خانتهم أرجلهم عن تسلق الشاحنة رعباً وفزعاً وكان منهم عبد الفتاح.. لم تسعفه رجلاه المتقرحتان والمتورمتان بالقفز إلى بطن الشاحنة أو أن يركض ليلحق بالشاحنة ويحاول التشبث ثانية بها.. ولكن لا أمل.. تمدد على الأرض ولم تساعده ساعات الراحة السابقة في صفوان على استعادة قواه.. فظل وحيداً بانتظار اي وسيلة نقل تبعده عن القفر والوحشة والعزلة في هذا الشارع الطويل الذي يربط صفوان ببغداد.

يدعك جسمه بالليفة والصابون، ليزيل أدران ثمانية عشر يوماً تجمعت حتى أصبحت قطعة منه، والتصقت بجسمه مع ملابسه الداخلية.. التي تلونت بافرازات العرق وأقذار الطريق.. حتى أصبح تجرده من ملابسه الداخلية كمن يسلخ جلده بيديه..

في البصرة كانت محطته التالية والتي قطع منتصف الطريق اليها ماشياً يَخِبّ كالجمل المجروح.. وأكمل الطريق راكباً سيارة أحد الأجواد من عرب العراق الأقحاح والذي زيادة في الكرم استضافه في منزله.. بعد أن ألم بحكايته وتجرع مع عبد الفتاح شجنه وألمه وكآبته.. في الملمات تبرق المعادن أو تصدأ.. وتشع الروح وتتجرد.. وتُقدّم الفضائل أو تَعُم الرذائل.. ويصبح للكلمة أو النظرة أو حتى اللفتة ألف معنى.

خمسة أيام مضت لم يذق للنوم طعماً، ولا للطعام مذاقاً وفي خضم حصار طال الغني والفقير في العراق كما في الكويت.. لم يستطع مضيفه ان يقدم له سوى النزر اليسير من الأرز المطبوخ.. كان المضيف قد اختزنه لعياله، أو لضيف شَجُون كعبد الفتاح.. لا تمتد يده للطبق الا مرفوقة بأصوات بعيدة لطلقات نارية سرعان ما تقترب لتتباعد.. يلحقها انفجارات عنيفة.. ودوي قذائف، وتتواتر الأخبار عن اقتراب المتمردين من الحي الذي يقطنه المضيف وضيفه.. فيسرع عبد الفتاح لاستئذان مضيفه الذي يصر على ابقائه بحمايته .. فيلبسه فوق قميصه وبنطاله دشداشة ويشد على رأسه كوفية حمراء ويسميه علياً.. أحد أولاده.. فلا تقلق انت من الآن ولدي.. ومن يسألك سأجيب عنك بذلك.. هكذا وجه المضيف خطابه لعبد الفتاح مهدئاً من روعه في ظل اشتداد دوي القذائف والطلقات المقتربة حتى حائط المنزل الخارجي.. قتلى في الشوارع، وصرخات نساء وعويل صبايا وبكاء أطفال.. واستجداءات رجال والذبح على السكين.. فاما تكون البطيخة

حمراء فيطلق السراح واما ان تكون قرعاء فتبتر منها الأصابع فاليد من الرسغ أو المرفق أو من تحت الابط.. وقد يختار منها الرجل ومن رضى عنه ربك يموت بضربة سيف أو فأس تطال رأسه أو عنقه.. لم تخل سجون الجلادين العائدين لأرض الكويت من اتباع هذا المذهب.. كما ان فرق الاعدام لشرذمة شاذة من العراقيين أيضاً.. لم تبخل ان تدمر الأرواح البشرية بمثل ما صنع المتمردون.

لا يلبث ان يتحول التصايح في خارج البيت إلى طرقات شديدة من جرِاء مسعورة.. على باب منزل المضيف.. لا بد أنهم المتمردون.. أصحاب الانتفاضة.. يقتلون على اسم العائلة الذي يدل على مذهب الشخص فاما تطلع شمسه أو تغرب.. افتحوا الباب والا كسرناه على رؤوسكم يصيح قائد المجموعة الذي يربط على رأسه وصَحْبه عصابة حمراء حول جبينه.. فيها من القرآن ما ليس فيهم.. ومن (يا) المنادى لأئمة كتبوا تاريخنا العظيم.. الذي لم يفقهونه.. يفتح المضيف أبو علي الباب، فيندفع الجنود داخل المنزل يسألون عن الأسماء.. ما اسم العائلة؟.. هل انتم أصحاب هذا البيت؟ .. هل لكم جنود في صفوف الطاغية؟.. هل تؤون أغراباً غير عراقيين؟.. من هذا الرجل؟ .. ملامحه ليست بَصْراوية؟.. يدافع المضيف عن ضيفه بشدة ويمنع علياً أو عبد الفتاح عن الرد عليهم صائحا فيهم ان هذا ولدي لأم غير عراقية.. فكفاكم اسئلة..وقد قدمت لكم كل الأجوبة.. بين شك ويقين وعيون حمراء دامية، وحركات عصبية تشد الأيادي على البنادق يقرر قائد المجموعة أخيراً ان

يقتنع مؤقتاً بما سمع.. ويخرج قائلاً سأعود لكم ويندفع بفجاجة كما دخل وعصابته.

يا ويلي كدت أقتل.. هكذا حدث عبد الفتاح مضيفه الذي كاد قلبه ان ينخلع من الخوف.. ما أطول الطريق وأشق هذا السفر.

أنهى عبد الفتاح حمّامه فصعد كل الألم المتجمع في جسده ورجليه الداميتين وفي روحه إلى قمة رأسه.. وزفر زفرة المعذب الذي بدأ الهدوء والسكينة يتسلل إلى روحه وجسده لتتمازج مع الألم ووجع الرأس فتمنحه نوبات من الراحة وأخرى من الوجع.. خرج من الحمام ليرتدي الملابس.. في سكن الطلاب الذي لجأ اليه بعد وصوله من البصرة، إلى بغداد على اثر محاصرة الجيش للمتمردين.. وفي شقة صديق له في السكن.. بدأ بارتداء الملابس التي اعاره اياها صديقه وهبط فوق السرير ليأخذ غفوة تحولت إلى سبات طويل لم يفق منه الا بعد ساعات ثماني عشر عوض فيها ألم كل يوم بساعة.

تونس ٥/١/١٩٩٥

كلام في الحب

تداعب خصلات شعره الأسود الفاحم، وهو يضع رأسه في حضنها كطفل صغير ينشد الأمان.. يعوض أياماً طوالاً كان يحلم فيها بنصيب من حنان أمه الذي كان ينتقل لكل طفل تلده تلو الآخر.. فيها.. وجد الحنان.. كما وجد الدفء، ووجد السكينة كما وجد التدفق من خلالها.. تفصل شعره إلى خصلات، وتمسدها بيديها الحريريتين.. تقبل جبينه. وبين عينيه. يبتسم مطمئن البال والخاطر.. انها حبه الدائم وشريكة مسيرته وشقّه الباكي وهو الذي اشتهى البكاء في مفاصل عديدة من حياته.. وعز على البكاء أن يعطيه من دمه ولو بضع قطرات.. فعوضته برهافة حسها.. وسيولة دمعها في الفرح والترح.. تبكي لحزنه وتبكي لفرحه.. ووجهه أبداً كرسم رجال التاريخ القادمين من عصر المنذر بن ماء السماء وامرؤ القيس هيئة واحدة.. ونظرة واحدة.. أحبها وأحبته وكان نهاية الأمر تحت سقف واحد في بيت واحد يضع فيه رأسه فوق فخذيها الجميلتين.. تبتسم له وتقول وكأنها تستكمل حديثاً بينهما قد انقطع عن الحب: ان الحب فيض دافق وشلال لا يتوقف تفجره. يطال الانسان الآخر أخاً، أماً، أبناً، صديقاً، شريكاً.. أو حتى حيواناً.. كلباً كان أو حصاناً أو هرة.. وقد يكون المحبوب شجرة بعينها أو مكاناً محدداً أو لحناً شجياً أو نوعاً من الجمال

لا تدركه الا عين المحب.. الطرف الأول .. يجذب منها حبل الكلام فيقول : ان قلب المحب فضاء واسع قد يتسع لمحبة من ذكرت كلهم أو بعضهم أو غيرهم.. تختلف المنازل وتتنوع المواقع في القلب.. في نسب تعلو وتهبط، تضطرد أو تتئد.. فتتفجر أو تخبو وتفنى.. ولكن يبقى الحب في الانسان السوى جزء لا يغيب، وشرطاً لا بد منه، وعاطفة يجب ان توجه، وفعلاً من مشمولات شخصية الفرد.. قالت: أرى في الحب انغلاقاً للقلب على المحبوب، فالقلب ديكتاتور لا يسمح بالحوار والمشاركة.. رفع رأسه، واعتدل في جلسته وقبلها على خديها ليشرك الأول في محبته للثاني.. وقال: ان التعددية في الحب من علامات ديمقراطيته.. واعذريني يا عينيّ ان أقول ان الدكتاتورية ملغية من قاموس الحب الذي يُعنى بتوزيع عادل للعاطفة على المحبوبين أجمعين كل حسب منزلته أو موقعه أو نسبته.. شريكي، صديقي، عملي، قلمي، بيتي، أولادي، شاطئ البحر، الصخرة التي ألفت الجلوس عليها، العصفور، أمي، أخوتي، أجواري، الأغاني الشجية، بزتي المفضلة، لحظات الشروق، الأفق، شجرة البرتقال..

كلها أتواصل معها، وأشاركها والتقيها وأعبر عن جزء من نفسي عبرها، وأحقق بها جزء من أهدافي.. كياني.. ذاتي.. في تطلعي الدائم للاستمتاع بالحياة والسمو بالروح.. أعاد لها الحديث فابتسمت وقالت: ان اختلفت معك لا أختلف في أن بالحب مشاركة مع الآخر، والتقاء معه وتواصلاً.. فلا اعتماداً ولا تواكلاً ولا أسفاً.. فأضاف: ولا استبداداً أيضاً.

فهزت رأسها : ولا استبداد، فان الحب بمنطق الاعتماد على الآخر يعني ان يحقق لطرف مصالحه ولنقل العاطفية بمعنى أن الزم هذا الطرف على تقبل تدفقات مشاعري وشلال أفكاري وسيل أحاسيسي دون مشاركتي له فيما يخصه بالمقابل؟! فرغم اقترابه مني في مثل هذه الحالة لا يتطور هذا الاقتراب بهذا الشكل وينكفئ لافتتان مؤقت سرعان ما يزول بزوال منطق التبادل والمشاركة.. منطق الالتقاء على قاعدة الدوام والتواصل.

أوافق.. أوافق هكذا كان جوابه وخرج من الغرفة مستأذناً ان يقوم باعداد كوب من اليانسون.. فلامته بلطف قائلة دع لي المطبخ وأموره وسأجلب لك كوباً من السحلب سأعده بنفسي وأدع لك ان تعد غداً فطورنا الصباحي على ذوقك.

معاً يقفان في المطبخ يعدان السحلب وما ان ينتهيا ويرشا المكسرات على سطح الأكواب ويضعانها على الطاولة حتى تفاجئهما ابنتهما الكبرى.. على باب المطبخ واقفة.. تدعك عينيها.. يأخذانها معهما لغرفتهما ليشربوا ثلاثتهم أكواب السحلب.. يمسك هو بطرف الحديث الذي قطعه اقتراح اليانسون فأكواب السحلب واستفاقة ابنتهما الكبرى ليقول: وأيضاً لا يستقيم الحب مع منطق الاستحواذ والاستئثار بمعنى ان يجرد الآخر من محبة ما سوى الحبيب.. لأن من يحب، يحب لغيره أن يحب غيره فيتوسع في منازل ومواقع وأصناف الحب دون ابتذال أو تطرف أو عدمية.. وعلى ذكر أصناف المحبة وتعدد المنازل والمواقع في القلب وكذلك نسب ودرجات المحبة كيف بكِ ترين استقامة مثل هذه العلاقات مع احترامي مسبقاً لبعض

تحفظاتك!.. ولكني أريد رأيك في هذا الأمر.. قالت: أشكر لك حسن ظنك وأحييك اذا كان التعدد جائزاً في الحب أصنافاً ومنازل فلا عدالة الا في التوازن فالحب على فرضية التعدد برأيك من الضروري ان يعترف بالجمع كما بالطرح والضرب والقسمة، فقد يجمع أكثر من محبوب سواء علت علاماته أو دنت، ارتفعت منزلته أو نقصت وقد يطرحهم وقد يشاطر معهم آخرين أو يضاعف نسبهم، فتزداد درجات محبتهم في خانة المئات فالآلاف.. بينما هما يتسامران ويتحدثان.. ويشربان جلوساً على السرير بينهم ابنتهم.. إذ بها.. ابنتهم وديعة كالقطة تنام فيدثرونها ويتمون بلمسة الحب والحنان ما انقطع فيقول: اذن كما يكون للمحبوب في القلب درجات رقمية يتم بناء عليه تصنيفه ضمن المواقع أو المنازل داخل القلب واختلاف نسب المحبة تحدد الدرجات.. وكل هذا لا يعفى القلب من أصل مسماه.. وهو المشتق من قلَبَ بمعنى التقلب والتغير والتبدل فيكون الهوى أو الحب عرضة للزيادة أو النقصان وبالتالي أصبح بالامكان ضخ دم جديد فيه يشعل من أواره أو يخفت من ناره.. ان الحب الحقيقي برأيي لا يقتصر على صنف أو فئة، وانما يشمل الانسان بكامل تنوعه ويطال مكونات النفس البشرية بخزائن اسرارها ودررها المكنونة، ايضاً يطال الطبيعة بمحتوياتها الأخرى من ماء وهواء وشجر وصحراء وبهائم ونباتات وأحجار.. ولا يقفز الحب عن قيم الحق وقيم الجمال والخير وانما يَلِجُ فيها وتلج فيه.

بكاء خافت متقطع من وراء الباب.. لا بد ان الطفلة الثانية

قد شعرت بغيبة اختها.. فعبرت عن ذاتها ووجودها وحاجتها بالبكاء من وراء الباب.. قام هو وفتح الباب باسماً.. مسح دموعها.. وقبل وجنتيها وأجلسها بينهما إلى جانب اختها النائمة.. فقالت شريكته له: لو قصدنا الحديث الآن حول علاقة الزوجين.. الشريكين.. الذكر والأنثى فاني أرى مفهومه بعيداً عن اقترانه مقصوراً على الجنس كما هو في الغرب مثلاً.. أو تجليه فقط من خلال المعاشرة بعد الزواج كما في المجتمعات المنغلقة.. ولا أراه فقط أحاسيس شوق وحنيناً وأنيناً وفرحة وحبوراً حال الفراق او اللقاء.. إني أراه كل ذلك وبالأساس رغبة في الالتقاء مع الآخر والمشاركة مع الآخر والتواصل.. انه اهتمام فمشاركة ذهنية ونفسية ورغبة في الوصال والديمومة للعلاقة.. ولحب الرجل للمرأة تميز عن العلائق الأخرى، فكما تتميز علاقة الأم بطفلها وحبها له بعاطفة الأمومة وكذا بالنسبة لأبوة الرجل، ومحبة الانسان لجماعته ضمن غريزة حب الانتماء أو التجمع مثلاً.. فان هذه التميزات في كل علاقة حب عن أخرى لها في علاقة الرجل والمرأة كذكر وأنثى ان تأتي بينهما العلاقة الجنسية تعبيراً طبيعياً يأتي بالسياق مع كل ما سبق.. لقاء فاهتمام ومشاركة وتواصل يسبق ويرتبط ويتلو العملية الجنسية.

قاطعها متفقاً معها في وجهة نظرها هذه دون اي تحفظ قائلاً: والتي من المفترض ان تكون حافزاً أو عاملاً لمزيد من المشاركة في التعبير.. في الاحساس.. في تبادل الرأي.. في تبادل الاهتمامات.. في تحقيق الجوانب الأخرى الأساسية التي تشكل مفهوم الغرام.. ان الجنس كهدف أوحد أو أبرز للعلاقة

وكما هو سائد اليوم في الغرب لدى الكثيرين.. انما هو اغراق في اللذة الحيوانية غير المهدفة أو المعللة والبعيدة عن محتواها العاطفي والانفعالي والفكري والاخلاقي.. والذي من المفترض ان يتكامل معاً لتحقيق صحة العلاقة وتواصلها.. ومع الرشفة الأخيرة من كوب السحلب تتجرعها الصغيرة على وشك اللحاق بأحلام اختها الكبرى.. يواصل قائلاً: فكما ان الأكل والشرب.. الطعام يحقق المتعة حسب نوعه وطعمه وجودته.. وهو يسد حاجة الانسان النابعة من جوعه والهادفة لبناء جسمه.. ليعمل.. اذن هدف الأكل والشرب الأساسي هو بناء الجسم ليكون قادراً على العمل فلا تصيبه الأمراض، وتهده الأيام، وتفتك به الأوبئة.. فيتحقق هدف الانسان الأسمى في هذه الحياة الدنيا وهو إعمارها.. كذلك الجنس ليس هدفاً للعلاقة بحد ذاته وان كان يحقق المتعة بذاته، كما الأكل.. وانما لتحقيق مزيد المشاركة والتواصل بين الحبيبين.. فتخيم عليهم السكينة والمودة.. وبقاء الجنس البشري.. نامت الأبنة الصغرى في براءة ووداعة وسكينة إلى جانب اختها فلم يبق له متسع في السرير.. ينظران مبتسمين لبعضهما.. والابنتان نائمتان كملاكين.. أو كيمامتين بيضاوتين في الهزيع الأخير من الليل.. يسحب اللحاف ليغطي به حبه الثلاثي ويقبلهن جميعاً ويخرج بهدوء إلى غرفة الطفلتين لينمن جميعاً.. وفي طريقه التقط كتاباً من مكتبته الصغيرة ليتواصل معه ويبثه لواعج نفسه يسمع منه ويستمع اليه.. في مودة وحب كلام في الحب.

تونس ٧/ ١/ ١٩٩٥

شمس قليبية

كماء في جرة على رأس فلاحة من الجنوب التونسي.. يتدحرج جيئة وذهاباً.. في حالة لا يهدأ من الحركة.. تتخبط القطرات المتجمعة بعضها في بعض.. تتلاطم كأمواج البحر.. تتصادم مع صخور الشواطئ.. في حركتها رتابة.. ايقاع مستمد من وقع خطوات تلك الأنثى.. الفلاحة المنهكة.. شاحبه الوجه، هزيلة الجسد.. بسبب العمل المستمر صباح مساء.. دون فترات من الراحة.. قصيرة أو متقطعة ان وجدت ولا تطول.. تدب بقدميها الخشنتين على الأرض دبيب أرجل الفرس.. واثقة الخطى تضرب مؤخرة (شبشبها) في عقب رجلها.. محدثة صوتاً أصبح من مشمولات شخصيتها.. بحيث ان كل من يسمع وقع الضربات على عقب قدمها.. يصيح ان قد جاءت شمس.. هكذا كانت روحي الشاحبة المنهكة دون فترات من الراحة.. تصطرع وتضطرب وتتدحرج.. وأنا خارج من المغازة الكبرى في شارع الحرية بوسط العاصمة التونسية..

ضمن المنتظرين عند محطة الحافلات مقابل الباب الرئيسي لمغازة (المونوبري) وقفت.. تحتضن حقيبتها الكبيرة كما أم تتشبث بوليدها.. ترفض حرمانه ولو لحظة حنان هي قادرة على منحها له.. بنطال أزرق أصبح من مميزات الطالبات التونسيات في غالب المراحل الدراسية حتى الجامعة.. يسمونه

دجين أو جينز، مع قميص أزرق داكن، وسترة سوداء طويلة حتى منتصف الفخذين.. شعرها معقوف وعلى منتصف مؤخرة رأسها بشريط فضي هو ملفوف.. بحيث لم يسمح لأي جزء من رقبتها أو وجهها ان يشتكي الظلام أو الاحتجاب عن النور.. طويلة باعتدال، بيضاء دون حمرة هي وكذا جيدها.. ساطع، ناصع دون نمش أو حبوب أو كلف وجهها.. تستطيع ان تكتب في ضوئه ان شمساً قد قفزت برجرتها وتلاطم أمواج مائها.. من روحي المنهكة لتحل في ذاك القد الممشوق والطول المقتصد الذي يميز فتيات ساحل تونس في قليبية وبنزرت.. عيناها الكحيلتان الواسعتان بانحراف طفيف في نهايتهما.. تسمرتا باتجاه قطة متكومة على الرصيف المقابل.. عند مفترق الطريق تنظر خلسة للمارة في وجل.. كمن ضاع وسط زحام المدينة الكبيرة.. تداعب بعيناها القطة وتلاعبها.. تربت على ظهرها.. وتكيد بابتسامتها كل القلوب وأولهم.. الذي ما زال بالجمال هو المفتون وبطعم التوت البري وعسل الغابات.. والزعتر الفارسي مع الشاي المطبوخ على الطريقة العراقية.. مجنون

وفيها ومن أول نظرة كما يقولون كنت أنا المفتون والمجنون وقفت.. وتريثت ان انتقل للشارع الموازي عند محطة (لافاييت) لأركب الحافلة تقلني لداري في (حلق الوادي) .. ما زال الوقت مبكراً.. ولأنني عرفت التونسيين من كثرة ما رأيتهم يسألون عن الوقت.. كانت شفتاها المكتنزتان البرتقاليتان هما السباقتين في المبادرة الأولى، حيث اقتربتا من أذني.. مع عبير لا أعرف اسمه من بلاد الفرنجة دخل في حنجرتي وخرج

من قمة رأسي في نشوة طاغية وانطلق لسانها في كلمات ثلاث كانت المفتاح الذي كنت أبحث منذ لحظات لأدخل من الباب.. سامحني قديش الوقت؟... ووجنتاها متوثبتان جراء ابتسامة عينيها وشفتيها وضياء جبينها.. ارتبكت.. تلعثمت.. وكأن كل ما اصطرع واضطرب في داخلي انبشق إلى الخارج بسرعة لم يتم الاستيعاب معها لضرورة وجود مرحلة انتقالية يهيء فيها المناخ الانفعالي والنفسي لينتقل به الانسان من مرحلة إلى مرحلة.. لقد حُرمت المراحل.. ويجب ان اتعامل مع المرحلة الأخيرة دون انتقال أو تدريج أو مرور عبر برزخ.. وكأنها استطالت عدم ردي أو ظنت اني لم اسمعها.. فكررت السؤال.. فقلت لها ان الساعة السادسة الا ربع فقالت: ستة غير ربع قلت: نعم.. أظن ان ستة الا ربع هي غير ربع في التونسية.. في لهجتكم ولكن غير متأكد.. فقالت: بلى هي تعني ذلك، قلت: على ما يبدو يجب عليّ ان آخذ دروساً في اللهجة التونسية، قالت: علاش.. فاللهجة التونسية سهلة ولا تحتاج لدروس لتعلمها، قلت: اذن هل لك ان تفيديني بذلك ان كان لك من الوقت والرغبة.. فكان لقاؤنا الأول في قهوة فندق (أفريقيا) في شارع الحبيب بورقيبة، وكان الحب.

طالبة في السنة النهائية في كلية التجارة.. هي من مدينة (قليبية) أصلاً تقطن مع أمها وثلاث أخوات في العمران الأعلى.. تلك الضاحية الشعبية الجميلة من ضواحي تونس.. بيوت جميلة متواضعة تحتضن الأخضرار وتحرص عليه ولا تسمح بالتفريط فيه.. كما اخضرار قلب (شمس) الذي تكثف

الحب فيه بفقدان اسرتها لوالدها عائلهم الوحيد وتنكر اقربائهم له.. استولوا على حصة الأب من الأرض والبيت في قليبية والمناطق المجاورة وكأن ما حدث مع أعمام شمس بما يخص بيت العائلة الكبيرة والأرض كان بيعاً وشراء.. فكان الشهود الزور وتنقلت ملايين المليمات من جيوبهم لهؤلاء الشهود.. فكانت محاكم وقرار.. القى بأسرة شمس في مهب الريح.. أب موظف بسيط في وزارة البيئة.. وأعمام لم يحفظوا حق الأيتام.. فاشتغلت الأم، رغم انقطاعها باتفاق مع زوجها عن عملها السابق في أحد البنوك للتفرغ لرعاية البنات الثلاثة.. والاهتمام بشؤون الاسرة.. كان لزاماً ان تلقى المسؤولية على الأم وشمس الأبنة الكبرى.. في ظل انقطاع شهرية الأب وحتى ايراد الأرض الذي كان يصلهم من أعمامها في حياة والدها.. ويساعد بشكل جيد على العيش الكريم.. بعد الشهود والملايين والمحاكم ثم القطيعة للرحم.. مع كل هذه الهموم كانت تعيش شمس تسعى لانها سنتها الأخيرة في التجارة لتنطلق لسوق العمل.. فجئت أنا لأدخل حياتها.. من النظرة الأولى وابتسامتها التي أغاظت قلوب الكثيرين.. وأسعدت قطة، لم يَخْل وجهها من مسحة حزن كانت بابتسامتها تحاول اخفاءها.. الا ان الوجه بتقلباته مفتاح القلب وأوجاعه.. مهما حاول الانسان ان يخفي سزيرته.. لا بد لها عبر الوجه من افتضاح.. أحببتها انساناً يجيد التعبير عن مكنون نفسها، ألمها وغضبها، سعادتها وشقائها، حبها وكرهها، لا تمل التواصل وتعشق التعبير، كثيراً ما استمعت اليها دون ان انتبه أو ادرك ما تقول.. أتأمل

وأتعمق في تفاصيل وجهها بعشق.. وتضيع الكلمات في غمرة التأمل في الانفعالات التي ترتسم في عينيها ووجنتيها والتفاتات رأسها ويديها فلا أدرك كثيراً من المعاني التي تقولها.. وكلما لاحظت عليّ ذلك.. تصمت وتبتسم.. ثم تطرق برأسها.. ترفعه وتبتسم بنظراتها رسالة لوم وعتاب.. ومحبة وغفران.. في البدايات كانت تضيق ذرعاً بهوسي التأمل في تفاصيل انفعالاتها.. وتحنق.. وتعبر عن ضيقها ظناً منها انني مشغول عنها.. عازف ولما علمت فيّ خصيصة التأمل أو عمق التأمل الذي ان تركز على فكرة أو قطعة أو تفصيلة ما.. أهمل الأفكار أو التفاصيل الأخرى اغراقاً في التأمل لا بقصد الاهمال للجوانب الأخرى.. فكانت الرؤية أو النظر والتعمق فيه تجاه حسنها يحجب عني جمال صوتها وتعابيرها وحسن منطقها وقدرتها على التواصل.. فأطرق رأسي وأغمض عينيّ لأحسّن من انصاتي لها.. وكان تكرارها بطلب مني لما تقول.. محرج لها في البداية لظنها انصرافي عنها في (التخميم) اي التفكير في شأن آخر.. ولما علمت ما سبق فيّ استعذبت تكرارها لما تقول بعد كل لحظة صمت وابتسام تطلقها إثر انقطاع تواصلي معها.. واعتادت اغماضي لعينيّ بتقطع ثم انطلاقي بالاستجابة لرسائلها الشفوية.. وغير المحكية.. لا يخلق التفاهم الا باحترام الآخر وتفهم حاجاته.. مشاكله، همومه، قلقه، تساؤله، فرحه، ترحه، والقدرة على تقبل الاختلاف معه.. وهذا ما كان ولما يمض سنتان على وقوعنا في شباك الحب.. الا وكان المستقبل قد أصبح موحداً بيننا.

هل أكون ثائراً ومناضلاً دون قلب، لطالما شغلتني هذه الفكرة وناقشتها معها.. ورغم رأيها المضيء الا ان ضغط ظروف العمل الجافة والقاسية في اطر منظمة التحرير الفلسطينية التي ضمت في صفوفها أطهر العرب والفلسطينيين، وأرذلهم من الكائنات التي تعيش على بقايا الطعام وتترمم حتى تحيل الجسد الفتي إلى جثة كلب تُزال من قارعة الطريق لتلقى في المحرقة.. وهؤلاء هم الذين يتلذذون ويهشون ويبشون كلما فاقت المصائب حجم جبل الكرمل في فلسطين لأنهم بذلك يعيشون في محيطهم الطبيعي.. وهؤلاء لهم في الحب رأي غريب.. نحن مناضلون ومتفرقون فلا القلب وأوجاعه ولا النفس وتقلباتها من شأننا.. نحن لسنا الا جنود لخدمة هذا الوطن المعطاء؟! هكذا يتفذلكون أما عن الرذيلة في أجسادهم وبين افخاذهم.. تصبح لديهم فضيلة يتم التفاخر بها في فروج النساء.. ولا يرون في المرأة الا أماً منزهة هي فقط امهاتهم أو زوجة طاهرة.. مفصلة على مقياسهم فقط.. المهم ان المرأة في عوائلهم غير قابلة للاختراق.. وما عدا ذلك فالمرأة في رأيهم تتراوح ما بين ان تكون عاهرة أو رقاصة أو قليلة أدب في أقلها.. ولهم هي بئر يلقون به بدلائهم كيفما شاءوا أو متى رغبوا.. وعليه فلا قيمة لسمو الروح واستقامة الخلق والحب وحسن التواصل بين الشريكين.. يشيحون بوجوههم عن مثل هذا الكلام أو يملأون رؤوسهم بالظنون والشكوك واذا خلوا إلى بعضهم وشياطينهم كانوا للرذيلة هم مزينين.. نميمةً وتحريضاً وتشكيكاً وتعهيراً مقصوداً بالآخرين.. وعلى قلتهم هم

نافذون.. فبالتالي.. نحن ثوار ولا قلب لثائر.. وكل وقتنا مكرس للثورة.. نميمة وخداع ودق أسافين.. وطبايخ.. ولعب الورق.. وشرب الشيشة.. لقد لقيت العَنَتْ من كلام هؤلاء القلة، والعَنَتْ الأشد من جو الأغلبية المتأثرة بمفاهيم بالية عن المرأة والتي تدور حول مفاهيم الحلال.. والحرام.. والعيب.. والخروج عن العادات.. وتحطيم اغلال التقاليد وما كانت عائلتي المقيمة في احدى قرى فلسطين ببعيدة عن هذه المفاهيم المرتبطة بالتقاليد وخاصة باستهجان أو استغراب الزواج من خارج العائلة أو القرية أو البلد للآخرين.. ورفضه لأبنائها.. فلما عرضت الأمر على والدي وأمي في فلسطين كان ردهم قاطعاً مانعاً.. ولم يكن حتى تقبل أمها سهلاً لزواج فلسطيني من تونسية خشية من اعمامها.. وفعلاً ما ان اتصلت ام شمس بهم رغم قطيعتهم وأكلهم السحت.. الا وتنادوا ان أولاد عمها أحق بها.. وكأننا ما زلنا نعيش في عصر الجاهلية.. قبل ان ينبثق نور دين سيد العالمين.. فاسقط في أيدينا أنا وشمس وقررنا.. وهل يجد الانسان كل يوم طرفاً آخر يعبر في ذاته عنه ويتواصل معه فيه، ويحب فيه هو، ويعشقه فيه ويرتبط معه بدبلتين.. واتمختري يا حلوة يا زينة.. فكان زواجنا فاتحة اللحمة الفلسطينية التونسية.

تونس ٨/ ١/ ١٩٩٥

اجتماع طارئ !

جلس يحدق في صحيفة الأمس الملقاة على مكتب الادارة.. يقرأ الجريدة من الخلف.. وهذه طريقة في القراءة يدمنها (رواد) المكاتب والمقاهي معاً.. فالصفحات الخلفية غالباً ما تحوي أخبار الناس واهتماماتهم اليومية.. الصغيرة.. من تصاميم الملابس، وأنواع الأكل وكيف تنقص وزنك أو تزيد طولك.. أو اللون الأمثل لعيونك سيدتي أو كيف تزيدين حجم ثدييك أو تخففين من ثقل ردفيك عزيزتي.. أو لمحات عن حياة ابنة القيس بريسلي أو آخر أخبار الشاذ الشهير مايكل بن جاكسون، أو آخر البوم غنائي لـ (باتوبانتون) أو (سندي لوبر) أو تضم أخر الطرائف والنوادر والملح... وبتقليب الصفحات بالعكس أيضاً يتمعن القارئ ان أراد في أخبار نجوم الملاعب ونجوم قاعات العرض.. ويتجول بين الاعلانات.. وما ان يصل الى ذلك الذي قتل زوجته أو تلك التي احرقت حبيبها من أخبار المجتمع حتى تتهيأ الصفحة غالباً للرد على تحية الوداع.. أما أخبار العالم المحترق في كل مكان في الصفحات السياسية الأولى فهي تلك التي اعتاد أصحاب الأقلام ملئها كي لا ينشف الحبر في الأقلام.. أو تضطر الجريدة أو المجلة لتصدير عدد من ركابها للانضمام لقاطرة المقاهي.

رغم ان الصحيفة هي عدد الأمس.. فان ذلك لم يمنع محمداً

من تقليبها ومطالعتها.. لا سيما وأنه قد وصل مكتب الجبهة مبكراً.. وهو الوحيد في هذا المكتب الذي لا ينام مبكراً ويصحو مبكراً حتى انهم يسمونه محمد الديك.. فهو أول من يصيح فيهم في المكتب .. مبكراً وذلك في الحادية عشرة صباحاً !! قبل الظهر، بينما يبدأ الثوار الذين يقومون الليل والنهار نضالاً وجهاداً وقتالاً.. بالتوافد بدءاً من الحادية عشرة والنصف.. يقطعون الوقت بسيوفهم انتظاراً لوصول الأمين العام لجبهة البلابل لتحرير فلسطين أو (البلبل الأكبر) كما يسمونه عند ما يتعانق عقربا الساعة معلنة انتصاف النهار.

في هذا اليوم.. الممل.. الطويل.. على كافة المناضلين، فان (البلبل الأكبر) مسافر في جولة أوروبية.. بهدف اقناع الرأي العام الأوروبي بعدالة القضية وضرورة دعم كفاح الشعب، وأهمية دور جبهته في تكريس الديمقراطية، والقضاء على الديكتاتورية والقيادة الفلسطينية المتنفذة.. وبالمرة يقضي أياماً من النقاهة بين أحضان الطبيعة.. ويعالج نفسه من مرض السمنة.. ويطمئن على أولاده الأربعة الدارسين في سويسرا.. وتشتري الخانوم الدرة المكنونة والحرم المصون.. عدداً من ملابس الـ (لوماتان) و (بورتولوجور) و(الماتينية) وطبعاً (السواريه).. ذاك منه أقصر القصير أو المبرز للحيزوم أو الذي على الجسم هو مزموم وفق آخر خطوط (الموضة) العالمية.. كل هذا على هامش الجولة التي ما هدفها بالطبع الا الاسراع باقناع الرأي العام الأوروبي لاحظوا.. الرأي العام الأوروبي من ستوكولهم حتى لشبونه.. بعدالة قضيته.. وضرورة دعم نضال ذاك النفر

الذين لا يدخلون بيوتهم الا بعد انتصاف الليل بساعات!!.. يقضونها بتحقيق تلاحم الأيدي والبطون والسيقان والفروج.

انقضت ساعة على وصول محمد للمكتب.. وما زال خالياً الا من الفراش الذي يحرس المكتب ويكنسه ويعمل فيه مراسلاً ونادلاً.. مما يضطره لقراءة الصفحات المملة وهي الصفحات السياسية مخالفاً بذلك قاعدة الاكتفاء بقراءة الصفحات الأخيرة.. فيشعل (سيجارته) الخامسة ويمر على أخبار الأفغان واليابان والثورة في بلاد الرومان وآخر المستجدات في طاجكستان.. والتغير المستمر للحكومات في روما وباريس ومدريد وحتى بلاد اليونان.. ينتفخ صدره بالضيق.. لم يأت أحد حتى الآن.. وتمتلئ المنفضة برماد السجائر وأعقابها.. وأربعة فناجين قهوة وكوبين من الشاي لا تكفي لأن يمر اليوم النضالي لمحمد بسلام.. اذن لا بد من اجراء جولة حول العالم عبر الهاتف للاطمئنان على أحوال الأهل والأصدقاء والأحباء والخلان.. وأثناء مكالمته الدولية الرابعة يناغي فيها ولده الصغير المقيم مع أمه في عاصمة الضباب.. يصل عدد من الثوار الى المكتب.. يسلمون على البلبل محمد أو الديك وهذا لقبه نظراً لصحوه المبكر قبل انتصاف النهار بساعة.. فيودع ابنه.. على أمل الاتصال به غداً صباحاً.

الى المكتب وصل كل من : مرتاح وأبو خشبة ونضال والأخير كان يتأبط صحف اليوم، وبعض أوراق (الفاكس).. الأول مرتاح.. من قدماء المناضلين الذين عاصروا البدايات فمرحلة التألق والمد الجماهيري.. الى مرحلة الشعارات والافساد حيث

انطلقت جبهة البلابل لتحرير فلسطين.. ثم مرحلة السياحة والانحطاط.. أما الثاني والملقب أبو خشبة فقد استقل العربة عند سقوط آخر شعار.. أما نضال فقادم للجبهة من ساحة يوغسلافيا لينضم للركب في مرحلة السياحة.. هؤلاء الثلاثة مع محمد الديك يشكلون في حقيقة الأمر كوادر وقيادة التنظيم.. بينما تشكل حاشية الأمين العام وقبيلته الممتدة على مختلف الساحات جسم التنظيم.

يسلمون على محمد، الذي أطفأ للتو سيجارته السابقة ومكالمته الدولية الرابعة وفنجان القهوة الخامس.. وبعد ان مّرر نظره على الصفحات المملة في الجريدة.. وكان يخطط بعد تعليق السماعة في أن يخون زملاءه والأمين العام أطال الله في عمره.. ويبادر في حل الكلمات المتقاطعة لوحده.. الا ان الله ستر بقدوم الثوار.. والا تحول المكتب الى معركة طاحنة.. لا يقع فضها الا بالدعوة لعقد اجتماع طارئ.

صباح الخير.. صباح النور يا بلابل.. شو الأخبار يتساءل محمد منشرحاً لقدومهم.. فأجابه مرتاح لا جديد تحت الشمس وأردف أبو خشبة واحد صفق والثاني طار.. وقال نضال: اليكم الأخبار.. لقد كسبنا مع حركة «فتح» الانتخابات في جامعة بير زيت بالأمس، ولم يستطع (بلابلنا) ان يتحصلوا الا على مقعد واحد في مجلس الطلبة.. وأظن كما تعلمون ان هذا لا يمثل حجمنا ولا جماهيرنا ولا مجهوداتنا الجبارة التي بذلناها حتى حطمنا قائمة (الأخوان المسلمين).. ولا أظن أيضاً ان البلبل الأكبر سترضيه هذه التركيبة.. ما كان بغريب على

الثلاثة الآخرين رغم قدمهم واسبقيتهم ان تكون الأخبار أولاً بأول بين يدي (نضال).. فهو بمثابة مدير مكتب الأمين العام.. البلبل الأكبر، لا سيما وأنه الوحيد المكلف بتغذية وكساء وتشطيف جهاز (الفاكس) المحبوب!!..

اتخذ كل من الثلاثة مقعده في غرفة الادارة.. وبدأوا يتناقشون في نتائج الانتخابات.. يحرقون كميات أكبر من لفافات التبغ، ويكدسون فناجين القهوة.. ويتناوبون على الاتصالات الخارجية مع ساحات التنظيم ليحثوا أعضاءهم على توقيع عرائض واصدار بيانات وارسال برقيات وعمل مهرجانات تنديد واستنكار ورفض لتلك القسمة مع فتح.. ويعودون للنقاش المحتدم بعد كل رد فعل ومكالمة.. ومن جملة النقاش.. اقترح البلبل محمد الاتصال بالأمين العام لاعلامه بالنبأ.. فاستشاط نضال غضباً.. فكيف يفكر محمد الديك بمضايقة الأمين العام في جولته الأوروبية الفذة.. وبان الاستهجان على وجوه الجميع، والتشكك في خاطر مسؤول الأمن أبو خشبة حيث قال: ألا تعلم يا ديك ان تحركات الأمين العام البلبل الأكبر.. تحفها السرية ولا يطلع عليها أحد.. وتحركاته غير معلومة واتصالاته جدّ مكتومة.. وفي جميع الأحوال فهو يتصل يومياً بالبلبل نضال.. ويمكننا وقتها ابلاغه بالخبر الفاجعة.. دون ان نحاول مضايقته بالبحث عن مكانه ومهاتفته!.. استحسن الجميع الفكرة حتى الديك خشية الظنون والتقارير.. لا سيما وان الكلام يتمحور حول شخص الأمين العام وتحركاته واتصالاته والتي تحيطها هالة من القداسة.. تفوق تبجيل الهندوس

لآلهتهم.. وبعد دقائق صمت يعود النقاش محتدماً عندما ينزل من مستواه العلوي الى مستواه الدنيوي.. يتقاذف الأربعة الاقتراحات ومشاريع القرارات.. يتصايحون.. كلّ يحاول أن يبرز أهمية فكرته في الرد على خيانة حركة فتح للجبهة.. ضرب عدد من أعضاء الحركة.. قتل رأس التنظيم في بير زيت.. احراق سيارات قيادات التنظيم، تبليغ السلطات الاسرائيلية عن السلاح بين أيدي حركة فتح.. القيام بمظاهرة جماهيرية حاشدة.. تلطيخ الجدران بشعارات تندد بممارسات حركة فتح.. تحريض الأساتذة على مجلس الطلبة.. ولما حاول محمد ان يطرح القيام بعملية ضد العدو لتنفيس الحنق تجاه ضغوط جو الانتخابات.. قوبل اقتراحه بهجوم معاكس صاعق.. من اتهامات له بالتهرب من المجابهة.. والخروج عن الموضوع والشطط، وممالأة فتح وسقوطه في فخاخ الانبطاحية والزئبقية والحلول الترقيعية والمهادنة.. الى الاتهام بالعمالة فتراجع غير آسف.. ليعود متشدداً ويطرح فكرة المعية هي ان توجه العملية لمقر شبيبة فتح في مدينة رام الله.. حيث قوبل هذا الاقتراح الذكي بالاستحسان والحب والحنان.. مع بعض الملاحظات من القيادات المحيطة به..

– أبو خشبة: بصفتي مسؤول أمن الجبهة.. أرى ضرورة مراجعة المندوبين في الداخل لمعرفة مدى نجاعة هذه العملية.. وهل نهاجمهم بالقنابل أم الرصاص أم بالحجارة والسكاكين..

فيردد محمد ونضال: نعم.. نعم.. هذا جميل.. !!

– مرتاح: على مهلك يا أبو خشبة.. على رسلكم يا شباب

فانتم تعلمون اننا لا نملك في الداخل الا دعوات الوالدين!

فليس لدينا قنابل أو رصاص أو سكاكين وحتى حجارة.. ونحن الآن نتكلم كلام داخلي وليس للاعلام.. وعلى فكرة ليس لدينا مندوبين أصلاً لأنه ليس لنا تنظيم في الوطن.. ولفوها وخليها بيننا.

محمد (متشدداً): ولو! فدعوتنا أمام الجماهير لها صداها خاصة ان فكرنا هو فكر الطبقة العاملة واختها تلك الرثة والهاملة.. فلا بد لو اننا خلعناهم بياناً بالموضوع فان الجماهير ستستجيب لنا و (نجيب خميرة) فتح.

– نضال (محتداً): أنا أرفض الآن.. كل الاقتراحات (وفكوها سيرة) فلا اقتراح ولا توصية ولا مشروع قرار ولا فكرة مسموح ان تطرح الا بوجود الأمين العام..

– محمد (متعجلاً): اذن.. أنا أدعو لعقد اجتماع استثنائي طارئ لقيادة الجبهة.. ولا يعارض أيّ منهم الدعوة، أو ان يلجموا السنتهم، ويقفل باب التفكير ويتوقف التغريد.. انتظاراً لتعليمات البلبل الأكبر.. أو عقد الاجتماع الطارئ.

يقوم نضال بتوزيع نسخ من (شبكة) اليوم على البلابل فيشرعون في العمل الجماعي اليومي الذي لا بد منه.. حل الكلمات المتقاطعة.. وعند مدينة فلسطينية تطل على البحر الأبيض المتوسط تشتهر بزراعة البرتقال وتصديره الى أوروبا.. يختلفون، وتتعالى أصواتهم وحلفانهم بالطلاق وتحدياتهم فمن قائل أنها بئر السبع وآخر يصر على أنها بيت حانون وثالث يحلف بعرض أمه انها مدينة كربلاء والرابع يتردد ما بين أن

تكون رام الله أو جنين.. كاد الخلاف يصل بين الثوار حد التشابك بالأيدي لولا تدخل الفرّاش بامتناعه عن احضار الشاي والقهوة لو استمروا في العراك.. فقرروا بعد خمود ثورتهم.. ان يرفعوا الأمر لاجتماع طارئ للجبهة يكرس لحل وحسم هذا الخلاف المستحكم..

في المطار.. وقف كل من مرتاح ومحمد وأبو خشبة بانتظار هبوط الطائرة التي تقل الأمين العام.. كل منهم يضع مسدسه على خاصرته تحسباً لأي اعتداء أو وجود أعداء أو جواسيس أو محاولة اغتيال للحظات الجميلة المتمثلة باستقبال الأمين العام.. عيون كل منهم أربعة وحواسهم كالمتحفز في الخندق الأمامي.. بخطوات سريعة يتراكضون من حول الأمين العام الذي يطوقه مرافقوه وحاشيته.. ويتشقلبون حول سيارة المرسيدس القاتمة.. ويتمخلعون.. إبعد يا ولد.. وسعوا الطريق يا شباب.. سيارة الأمين العام ستمر.. ينطلق الموكب ينهب الأرض نهباً.. ومع أصوات الفرامل و (زمامير) السيارات يتوقفون عند بوابة (ڤيلا) الأمين العام.. يخرج من السيارة مع طرقعة الأبواب وأصوات خبط الأحذية على رخام أرضية المدخل.. يوزع ابتساماته لبائع الخضرة.. وصاحب المقهى ومحل (الڤيديو) المجاور لمنزله.. ويبش ملوحاً بيده لنساء الأجوار على الشرفات.. ثم يطبق فمه، ويقطب جبينه في وجوه أعضاء وكوادر وقيادات الجبهة المقيمين في حيّه.. يقفز من سيارته الى مخدعه ليستريح من رحلة الراحة بعد المرور ببيب الراحة.. وينطلق الحشد المرافق لأداء مهامهم في قيام الليل..

يستبقي معه مرافقه الشخصي. ونضال.. ليناموا معه حيث ان الخانوم الدرة المكنونة والحرم المصون ستبقى بمعية أولادها في أوروبا عدة أيام.. لتستكمل جولتها التسوقية وكل هذا على حساب جدها (الباشا) طبعاً!! وليس من عرق ودم آلاف الشهداء، وعشرات الآلاف من الجرحى والمعتقلين ومثلهم من المجاهدين والمحزونين!!.. حاشا لله!.. وفي هذه الليلة.. لا يُبقي نضال صغيرة أو كبيرة الا ويحشرها في اذن البلبل الكبير التي استطالت حتى فاقت كرشه حجماً.. وما أن يبزغ فجر اليوم الموالي عند تعانق عقربي الساعة.. حتى يهرول الأمين العام مع حرسه لمكتب الجبهة.. ويستدعي قيادته لاجتماع طارئ عاجل..

وفود التنظيمات الأخرى، والمنظمات الشعبية، والأجهزة والدوائر المختلفة، بانتظار اذن الدخول للأمين العام لتهنئته بسلامة الوصول.. من مقارعة الامبريالية في عقر دارها.. وما ان سمعوا بالاجتماع الطارئ.. والمفاجئ لقيادة الجبهة حتى بدأت الهمهمات، وانطلق التهامس وتطايرت التكهنات والتوقعات.. لا بد ان الرد على المقعد الوحيد الذي تحصلت عليه الجبهة مع فتح في مجلس طلبة بير زيت هو السبب.. لا.. فاختلاف الأمين العام لجبهة البلابل مع الأمين العام للجبهة المنشقة هو المرجح ان يكون سبب هذا الاجتماع المفاجئ.. ابداً لا بد أن اختلاف قيادة الجبهة حول اسم المدينة الفلسطينية الشهيرة بالبرتقال هو السبب... ويتكهن آخرون انه ربما يخطط الأمين العام للجبهة لعملية حربية مميزة.. أو انه سيضع بين

يدي أركان قيادته ثمرة جولته الأوروبية الناجحة دوماً.. بينما قيادة الجبهة ترتعد وترتعش خوفاً من تقرير نضال للأمين العام في الليلة الماضية؟!.

على رأس طاولة الاجتماعات قعد الأمين العام.. يحف به من الجانبين كل من نضال والمرافق الشخصي ومحمد وأبو خشبة وثلاثة آخرين.. بقلوب واجفة ووجوه عابسة.. وبعد ان يقوم الأمين العام بالرد على بعض المكالمات يطلب من نضال الخروج للاعتذار من القيادات والكوادر المنتظرة لرؤية طلعته البهية في الخارج لسبب هذا الاجتماع الاستثنائي الطارئ.. ما أن يعود نضال ويتخذ مقعده الى جوار الأمين العام.. حتى يفتتح الاجتماع والقلق والترقب والخوف قد أخذ من قيادة الجبهة كل مأخذ.. فيبسط البند الوحيد على جدول الأعمال لأن الاجتماع استثنائي وطارئ ولا يتحمل غير ذلك.. الا وهو اقرار زيادة المصاريف السرية للأمين العام نظراً لزيادة الأعباء وكبر حجم مسؤولياته وضخامة انجازاته وتكاثر مصروفاته وفخامة انفاقه خاصة بعد الجولة الأوروبية الأخيرة.. مرفوقاً برجاء مقدم لحركة فتح!.

تونس ١١/١/١٩٩٥

دخن عليها تنجلي

فتحت الباب الذي اعتدت وجميع أخوتي.. حتى بعد ان تزوجنا ان يبقى مفتوحاً.. لا قرع جرس، ولا طرقات على الباب.. فقد وقع رفع الجرس منذ سنوات وتم الاكتفاء بالاجابة على الطارق من نقرات أصابعه أو يده أو من صياحه مخاطباً رب البيت.. يا أبو اسامة، واعتدنا أنا وأخوتي على هذا الاسلوب في استقبال الضيوف وفي دخولنا للبيت دون ضجة.. حتى بعد ان تفرقنا كلٌ الى بيت الزوجية.. حيث كنا نعود جميعنا الى البيت الكبير بيت الوالدين دون قرع أو طرقات أو ضجيج.. دخلت من الردهة الى غرفة النوم ومنها الى المطبخ.. على الأرض جالسة منذ عشرين عاماً على هذا الوضع، رجْل ممدودة والأخرى مثنية وأمامها (المفرمة) تقطع أو تهرس أو ترحي فيها متطلبات طبيخ اليوم.. بادرتها بالسلام فردت أمي وعليكم السلام، كيف حال امرأتك وأولادك.. الحمد لله كلنا بخير.. ولكنك مختلفة بشكل واضح اليوم، هل حصل شيء؟! .. أبداً، لقد جاءوا البارحة واقتحموا علينا البيت وبدأوا يبعثرون الأثاث ويحطمون ما تمتد أياديهم اليه.. جهاز التلفزة، الطاولات، الكرسي، الثلاجة، الخزائن.. وحينها تذكرت الحال الرثة التي يبدو عليها البيت منذ لحظة دخولي ولكنني لم أركز الانتباه.. وتابعت: ولم يكفهم التحطيم والعبث والالفاظ

النابية وهم يهتكون حرمة البيت متأبطين شرورهم، أسلحتهم الطويلة، لا بل واعتدوا على والدك بالضرب حين رد عليهم.. ذهلت! فلم أكن لأظن حتى لمتوحشين ومرتزقة وقساة قلوب كهؤلاء أو غيرهم ان يعتدوا على رجل مسن وعليل.. أضافت أمي: انهم جاءوا هذه المرة يفتشون عن شاب يمتلك سيارة (فيات) بيضاء باب واحد وعلى ما يبدو أن أحد عيونهم المندسة أشار عليهم بأنه أخوك فتحي.. دخلوا هائجين كالثيران يجرجرون دشاديشهم وسراويلهم وأذيال العار، ورغبة الانتقام من أنفسهم لهروبهم من البلد في محنته.. ثلاثة منهم يلبسون الدشاديش والكوفيات وأربعة أطفال، صغار، بلباس قوات التحالف، واثنين بالملابس السوداء.. أين فتحي ؟! ولدكم صاحب سيارة (فيات) البيضاء؟! فأجابهم والدك ان فتحي ابني في داره، وليس لديه سيارة (فيات) بيضاء.. اخرس انت كاذب، هو المقصود ولم نجده في داره هكذا أجاب زعيمهم على ما يبدو والذي كان مرتدياً دشداشة صفراء كوجهه المغبر.. أليس من العيب عليك ان تُكذّب رجلاً بمقام والدك هكذا رد عليهم أبوك.. فهجم عليه الصبية بلباس قوات التحالف المموه وأسقطوه أرضاً وعكازه.. وأخذوا يتناوبون على لطمه.. ولولا تدخل أصحاب الملابس السوداء.. بارك الله فيهم.. لقضوا عليه.. وبالمصادفة كان في البيت أختك منيرة وزوجها، والتي ما ان رأت والدك يلقى على الأرض حتى علا صياحها وأخذت تشدهم من ملابسهم ولم توفر فيهم كلمة من قاموس الاعابة في أفعالهم وتقبيحها، حتى القوها أرضاً هي أيضاً.. كل هذا

حدث في دقائق كادت الأسلحة فيها تأخذ دورها لولا فرج الله وتدخل أصحاب الملابس السوداء كما قلت لك واشتباكهم في معركة كلامية مع الآخرين.. واجبروهم على الانسحاب من البيت.

كانت أمي تتحدث وأعصابي في أوج توترها وروحي في سماء الحزن وبين غيوم الكمد محلقة هائمة.. لم أكن أتصور وحشية تماثل الاعتداء على ذاك الشيخ الكبير.. الصامد في وجه دواهي الزمن كما الصخرة الصلدة.. ذو القلب الفتى المقدام والعقل المتقد الوثاب.. لم تقعده السنون رغم اعتلاله ولم ترهقه الأيام رغم وهن الجسد منه ألأنه أبى.. ربما، ولكنه كل الآباء في واحد.. والفعل فيه قائم ضد كل الآباء.. ان الشر وان تقصد شخصاً بعينه فهو أي هذا الشر أو الضغينة في حقيقته مركب لا نُوريّ لذا فهو لا يبصر.. فما ان يبرز حتى يتجمع شيئاً فشيئاً في قعر النفس الحقودة ويترسب مزيجاً عطناً طارداً من أمامه كل كوامن وبواعث التسامح، ويتصيد له في اللاوعي شيئاً ما، مكاناً معيناً أو زمناً أو فكرة أو شخصاً محدداً.. رغم انه في حقيقته موجه لكل من هم في الخارج.. خارج اللاوعي ومنهم هو ذاته صاحب النفس الحقودة.. ليعود فينفث هذا المزيج قطعاً نارية وصخوراً مصهورة لاهبة تحرق كل ما أو مَنْ أمامها.

ان التسامح والطلاقة لا يعيشان في فضاء واحد مع الضغينة والحقد فإما هذا وإما ذاك.. دارت في رأسي هذه الأفكار وأنا بالكاد أمسك شتات روحي، وفتات نفسي، كي لا أتبعثر أمام

أمي المحزونة الباكية فأزيدها حزناً ونحيباً.. لم استطع ان أتم الانصات لحديثها.. فهدأت من روعها وهونت عليها مصيبتي ما استطعت.. فهؤلاء قلة وان طغوا، وهم محاصرون وان كثروا، وانعزاليون وان تمددوا.. حتى وان لم ترى العين في الكويتيين الا أفعال هؤلاء.

في هذا الوقت، لم يكن والدي في البيت فهو يؤدي صلاة الظهر كعادته في المسجد القريب وأخوتي الأربعة غير المتزوجين، كل واحد منهم مع أحد أصدقائه في زاوية من زوايا الحارة أو في بيت أحدهم.. يتجمعون رغبة في طرد الخوف والرهبة والتوتر وانعدام الأمان والرعب المخيم على مناطق التجمع السكني لغير الكويتيين وجلهم من الاردنيين والفلسطينيين خاصة في منطقتي حولّي والنقرة.. حيث تقطن عائلتي منذ ثلاثين عاماً.

ودعت والدتي الجالسة الباكية المحزونة تاركاً اياها تعد طعام الغداء، وانطلقت الى بيت عصام، أحد أقرب الأصدقاء الى قلبي.. وحيث ان الخروج من منطقتي النقرة وحولي محفوف بالمخاطر والتي في أقلها اهانات بجميع الألوان على الحواجز في مداخلها ان لم يكن ضرباً ملوناً أيضاً.. لذا فقد آثر معظم سكان المنطقتين الانكماش داخل مجتمعهم واقتصار حركتهم بينهم، ولم يسلموا مع ذلك من الحملات التفتيشية ولا من الحواجز الطيارة والدوريات الرعناء وعمليات الاقتحام العشوائية.. فما كان اللاحقون بأفضل من السابقين.

أوقفت السيارة اسفل البناية وصعدت إلى الطابق الثالث حيث يقطن صديقي عصام.. عصام انه ذاك الرجل المرح،

الاجتماعي، الذي لا يستطيع ان يتنفس الا ضمن الآخرين، فيملأ الجو ضحكاً وحبوراً وشدوا، محب للحياة الى أقصى الحدود، لا تراه الا والبسمة تعلو وجهه والطرفة لا تفارق لسانه، لا يجد التقطيب أو العبوس في محياه مكاناً، حتى في هذه الأيام السوداء، لا تراه الا والسيجارة تتدلى من فمه، والابتسامة لا تفارقه، ويبادرك بالسؤال دوماً قبل ان تنبس ببنت شفه.. كيف الحال، دخّن عليها تنجلي!.. ولم يختلف هذا اليوم عن سابقه من أيامه فما ان فتح لي الباب.. حتى سقطت السيجارة من فمه من شدة الضحك.. استغربت وخرجت مني البسمة غصباً، وبعد ان دخلت الى غرفة الجلوس وهو ما زال يضحك، تناول السيجارة المشتعلة من الأرض وأعادها لفمه، وقال: اعذرني، على هذا الضحك! فلم اتمالك نفسي عندما رأيتك بهيئتك الرثة هذه، ووجهك العبوس، فشر البلية ما يضحك كما يقولون.. حمدت الله في سري ان أولئك الحاقدين لم يستطيعوا ان ينتزعوا الضحكات من على الشفاه رغم انهم كادوا يقتلونها فيّ.. وتابع كلامه بسؤاله المعهود وأنا لما أزل في تيهي أجول.. كيف الحال؟ دخن عليها تنجلي.. انني منزعج جداً ومتضايق ورويت له ما حصل لأسرتي، وبكل عفوية ومودة اخذ يحاول اخراجي من حال الحزن والألم، وبقليل من فكاهته ومرحه فلم يستطع.. ومع دخول زوجته بأكواب الشاي أصبح الحديث يتمحور حول فكرة الخروج من جو الرعب والخوف والضيق وعدم الاستقرار.. وترقب الاعتقال والتعذيب في المدارس التي تحولت إلى سجون، وأبدت زوجته الحاحاً شديداً على ضرورة

مغادرة هذا البلد الظالم أهلها كما ذكرت.. لا سيما وأن كل الظروف أخذت تتهيأ قصداً لغير أصيليه ليتركوه.. وألف ألف لعنة على سنوات العمر الطويلة لأولئك الرواد الأوائل الذين ما قدموا لهذا البلد، وجنوباً منه، الا لنشر رسالة النور والعلم حتى ان معاشاتهم كانوا يتقاضونها من حكوماتهم، وما شدهم للتغرب وارتياد الصحراء القاحلة الماحلة الا وشائج الأخوة العربية والمصير المشترك، وعلى ذلك سار معظم ابنائهم من بعدهم، الى ان وفدت موجات الهجرة المتتابعة لتجد جماعات منها في هذا البلد الأمن والاستقرار والدعم لنضالاتهم، ومجالاً لتحقيق مطامحهم العائلية والشخصية وذلك في مرحلة المد القومي التي سرعان ما خَبَتْ واندثرت لتبرز مكانها دعوات القطرية والاقليمية والتخلص من هؤلاء الوافدين العبء.. الذين أدوا دورهم وكفى.. فكان لا بد منذ سبعينات هذا القرن ان تصاغ خطط الحكومة في التعليم والصحة والاقامة والتوظيف والعمل بما يحقق هذا الهدف الجديد في مطلع العام ألفين.. فكان الاجتياح العراقي الذريعة الكبرى والخدمة الجليلة التي حققت لدعاة تنظيف البلد من عربها تنفيذ مآربهم.. وأصبحت التُهم تلقى جزافاً على كل فلسطيني وكل عراقي وكل أردني وكل (بدون) وغيره من العرب وتتمحور حول (العمالة للعدو العراقي الغاشم)! والتي تبتدئ من الرد على الحديث مع جندي أو اسعافه بشربة ماء أو النظر في عينيه.. حتى تصل للاتهام بالمشاركة في الاعلام أو الاعتقال أو التعذيب.. وأضحت الريبة والشك والضغائن سيدة الموقف في ظل أيام مرت لم يحكمها

القانون، والذي ما ان حطّ في البلاد مع وصول السلطة حتى قُننت هذه الأعمال وشُرّعت ونُظّمت ولم تنفع لايقافها صيحات كل منظمات الانسان في العالم ومنهم شرفاء الكويت الكُثْر بأعمالهم وبيض صنائعهم.

خرجت من عند صديقي عصام والأفكار التي تداولناها تتصارع في ذهني، وتضغط باتجاه تبني خيار مغادرة هذا البلد.

غير بعيد عن محل سكناي، استوقفتني دورية تركبت من رجال خمسة باللباس المدني والعسكري.. سألوا عن السيارة وأوراقها والبطاقة المدنية ورخصة القيادة والاقامة، وهل غادرت البلد الى العراق وعن جواز السفر، وختم اقامة العرب، وهل غيرت لوحة السيارة أيام الاجتياح.. ولم يعجبهم تحصني بكامل الأوراق.. فالشر في قلوبهم.. من أفواههم وعيونهم يتقافز، والرغبة في الانتقام من أي كان بادية في اقفيتهم التي اهتزت من العَدْو باتجاه الوفرة فالخفجي قبل شهرين أو ثلاثة مضت وكانت تلح عليهم ان يستعيدوا شرف بكارتهم التي افتضوها طواعية بأيديهم.. المهم ان أجوبتي، وأوراقي الكاملة لم تعفني من تفتيش السيارة ثم تفتيشي جسدياً، فوجدوا في جيبي مصادفة رسالة كنت قد نسيتها بين طيات ملابسي وصلتني من صديق حميم آخر يسكن في منطقة بالاردن اسمها (عراق الأمير) وما ان رآها ذلك العلج وقرأ فيها على ما يبدو كلمة (عراق) .. حتى أبعد يديه عن جسدي منهياً التفتيش.. وبكل عنف ورذالة انفجرت جمرات لسانه صائحاً.. تتلقى رسائل من

العراق وتقول ان لا علاقة لك مع الأعداء يا ابن الـ ... وكانت رجله أسبق من كلماته مما أوقعني أرضاً لينهال عليّ كل العلوج من صحبه الذين سربلوا الكويت بالقيود والأصفاد الامبريالية الى ولد الولد.. ينهبون ويهتكون ويختلسون ويسرقون ثروات وأموال وشرف وكرامة وعروبة ونخوة أبناء الأمة في البلاد، وهم مرحون فرحون، في غيهم لاهون، مدركون أو غير مدركين لعمق الخسارة وفداحة الهزيمة التي لحقت بهم وبجيرانهم معاً.. كانت أعقاب البنادق تخترق كل أجزاء جسمي حتى خلت ان العظام مني قد تكسرت.. فلم استطع ان أقف ولا أن انطق للرد على جمراته المتناثرة.

صحوت من اغمائي، واذ بي في داخل سجن لم أتبين موقعه أو كنهه أو كيف وصلت اليه أصلاً.. كنت مسنوداً الى الحائط عندما افقت، ورجلاي مثنيتان حيث لا مساحة تستوعبني أكثر من هذه.. غرفة أو زنزانة لا تتجاوز مساحتها أربعة أمتار في أربعة.. جلس فيها أكثر من أربعين رجلاً وطفلاً يتهامسون بشتى اللهجات العربية متى ما غاب صوت وقع أقدام السجان بعيداً عن الباب.

الهواء رطب والرائحة عفنة تنبعث من الأحذية والجوارب الملقاة على مدخل الزنزانة، ومن أجساد المعتقلين الملوثة بالدماء والبصاق والصديد والعرق.. كان السجناء يصمتون كما السقف الخرساني البارد.. متى ما اقتربت وقع الأقدام من الباب، ولما تساءلت عن سبب هذا الحذر والصمت المطبق جاءني الرد من السجان أمام الباب الحديدي من الخارج سيلاً من الشتائم التي

طالت الله والوطن والعرض.. ففهمت اغلاق الجميع لأفواههم.

أصوات صرخات ألم وضربات سياط أو عصي، وصيحات عالية وشتائم وتوسلات وتنهدات وتأوهات تصلنا من غرف مجاورة.. انها غرفة التعذيب هكذا همس في اذني رفيق الزنزانة الذي كان يضغط على كتفي اليمنى مهددها بالخلع.. يقولون انه كويتي مسؤول في الاستخبارات العراقية.. هكذا صرح رفيق الزنزانة الذي يعصرني من خاصرتي اليسرى..

تزداد الصرخات والتوسلات وتتعدد الأصوات وكأن التعذيب الحاصل قد أصبح جماعياً سواء من قبل الفاعلين أو المفعول بهم.. آثار التعذيب التي كنت اتبينها بصعوبة من ضوء الفانوس الهارب عبر فرجة البوابة لينعكس في ظلام الغرفة على بعض الوجوه المرهقة المتعبة المشققة.. دلت لي الآثار والندوب والشروخ والدماء.. مع الأصوات المعذبة على عمق الحقد في نفوس هذه الكائنات المتوشحة المتدثرة في جلد انسان سواء تمثلت في تلك العصابات التي امتهنت التعذيب دون هوادة أثناء فترة الاجتياح أو اختها هذه العصابات التي تتلذذ بالسير على خطى سالفتها.. لا تمر دقائق الا ويطل علينا من فتحة في باب الزنزانة الحديدي عدد من النساء أو الرجال أو الصبية من أهل البلد ينهالون علينا بأقذع الشتائم وأسوأ الألفاظ.. أو بعبارات الشماتة، وعدد منهم كان يعبر عن الحزن والأسى لتقطع الأواصر ونزف الجرح.. والله يجازي الذي كان السبب.. ولا حول ولا قوة الا بالله.. أو ما شابهها من أقوال.

لم أكمل الليلة الثانية وأنا على هذه الحال.. دون طعام

وبقليل من الماء.. وبباب يفتح ليسحب أحد السجناء ويلقى بآخر في حالة يرثى لها.. وزيارات الفرجة على حديقة الكائنات الغريبة.. وشتائم وحوارات غير متكافئة الا وجاء دوري.. من منكم ذاك العميل العراقي المسمى اسامة ليخرج اليّ بسرعة.. هكذا صرخ السجان وهو يفتح الباب الثقيل..اشهد ان لا اله الا الله.. لقد اقتربت الساعة.. هذا ما قلته في نفسي متمنياً ان يطيحوا برقبتي، ولا يشقوا في جسدي الشوارع والجسور أو يحفروا فيه الآبار والخنادق.. لا.. لا أريد ان أحقد عليهم.. يكفيني كراهيتهم وكراهة أعمالهم ولا أريد للحقد ان يخرج من نفسي ليقفز الى غير الأعداء الحقيقيين صهاينة سلب الأرض واحراق القلوب وقتل الفرحة ما يقارب القرن حتى الآن في ثغر هذه الآمة.. كما فعل قبلهم الصليبيون والمغول الذين دُحروا الى غير رجعة.. اللهم اعطني القوة لأموت دون جبن ولأعيش دون حقد ولأصبر دون ضغينة ولأحيا دون ثأر، ولأتكلم بمودة ولأسعى ولو بعد الف عام لوحدة هذه الأمة بداية من وحدة مصطلح (التلفزيون) بـ (المرناة).. اللهم ان عشت لك الحمد وان مت لك الحمد. قمت من مجلسي المرهق الذي لم أغيره منذ يومين حيث لا حراك.. دسست حذائي في قدمي ودلفت أمام ذاك البغل المزهو بنطاقه يتدلى منه مسدس أمريكي طويل ذليل من نوع (ماغنوم).. لم أفه بكلمة حتى انني كنت أخشى ان تثب الكلمات من رأسي فيكسروه.. سيادة العميد يريدك هكذا قال وأشار الى غرفة قريبة على يمين الممر خارج الزنزانة.. عميد مرة واحدة؟! لا بد ان ليلتنا كحلي.. وقفت في الغرفة

المضاءة.. مكتب وأرائك وطاولات مغبرة الا انها ذات فرش جيد يدل على انها لمسؤول السجن.. ولما تمض دقائق على وقوفي في منتصف الغرفة حتى أقبل عليّ رجل عظيم اللحية ابيضها.. يضمني الى صدره ويقبلني.. انكرته في البداية حتى بادرني بالاطمئنان على صحتي.. نعم انه العميد عبد الرحمان صديق أخي فتحي.. أحد حرفاء شركة السيارات التي كان يعمل بها فتحي مديراً للصيانة.. وحمدت الله بعدد الأيام التي كتبها لي مضافاً اليها شُكرٌ بحجم أيام النبي نوح أيضاً.. وما ان وضع يده بيدي متجاوزاً عصابات المسلحين على الباب، وعدد من أعوانه واستنشقت هواء البحر المشبع باليود حتى كانت المفاجأة الثانية في انتظاري.

صديقي عصام جالس في المقعد الخلفي لسيارة العميد، يبتسم من وراء وجهه الدامي وعيونه المنتفخة.. لم يعجبهم فرحه ومرحه وابتهاجه بالحياة فحاولوا كما فهمت لاحقاً قتله.. بادرني بالعناق وهو يئن قائلاً: كيف حالك! دخن عليها تنجلي!

تونس ١٦/١/١٩٩٥

قدري ان اتزوج اثنتين
في ليلة واحدة!

كان قدري ان اتزوج اثنتين في نفس الليلة! وقبل ان ترفعوا حواجبكم وتفغروا أفواهكم عجباً وتتساءلوا اليكم الحكاية.

في شهر رمضان الفارط وحيث الناس يفترقون للتهجد والعبادة في المساجد أو البحث عن شراء وطبخ ألذ الأطعمة وأشهاها أو يركنون للنوم والكسل اخترت أنا التجوال في الطرقات الخالية -كما هو شأن قلبي الكسول الخالي حينذاك- من المارة مشاة أو ركباناً، أو باعة قليل منهم ما زال محله مفتوحاً في الساعة التي تسبق انطلاق مدفع الأفطار.

أبدأ بالمسيرة متأبطاً الجاحظ أو ابن خلدون أو ابن الأثير أو المقريزي أو أبو الفرج أو أحد أخوتهم الآخرين، وصحيفة اليوم وأوراق بيضاء وأخرى مسطورة ضمن ملف بني اللون، ومجموعة من الأقلام محشورة في جيب (جاكيت) البدلة الخضراء الوحيدة التي أملكها.. والتي كان قد أهداها لي صديقي جميل اشفاقاً عليّ ورغبة منه بتغييري لطريقة لبسي التي لم تخرج عن سروال داكن وقميص فاتح صيفاً يضاف لها سترة من الجلد الصناعي شتاء.. فأحب هذا الصديق الأخ جميل العزيز ان يتخلص من أحدى بدلاته غير المستعملة ذات الطراز القديم فألقاها اليّ.. فأصبحت هذه البزة رفيقة دربي وتميزني مع

الملف البني الذي تحصلت عليه جائزة على تفوقي في الثانوية العامة قبل خمسة عشر عاماً.. وان حدثتكم عن الساعة فلن تصدقوا انني اشتريتها منذ اشهر قليلة بعد ان ودعت رفيقة معصمي القديمة التي أعلنت الاضراب الأبدي عن العمل كما أنبأني صديقي الساعاتي أبو موسى، والذي خيرني بين ان القيها في الوادي أو أهديها لأحد متاحف الساعات في العالم! أما عن قدميّ فهما لصغرهما محظوظتان، فالحذاء الرياضي ذو الرباط الطويل لا يفارقهما، ويتبادل عليهما أزواجاً عديدة تلك التي يستغنى عنها أصحابها ذوي الأقدام الصغيرة مثلي (نمرة ٣٦)، فلا يمر شهر أو اثنين الا وأُهديت حذاء أو اثنين من مخلفات أصدقائي الصغار لاعبي نادي الفراشة الرياضي.. وما لكم بطول السيرة.. فقد بدأت المسيرة اليوم وككل يوم في نفس خط الحافلة التي أركبها أحياناً من بيتي في أحد ضواحي المدينة الى وسط البلد.. أتأمل البيوت واتطلع للشوارع واتمعن في المباني والمحلات، ولا أترك واجهة الا واتفحصها مراراً وتكراراً.. بكم هذا السروال؟.. كم سعر التفاح اليوم؟.. هل لديكم جهاز هاتف (سوني)؟.. كم ثمن علبة عصير الجوافة هذه؟.. لماذا سعر هذا الحذاء غال؟.. الخ حتى ألفني أصحاب المحلات فمن كان يتضايق مني اضطر مع تكراري اللحوح ان يستبدل (حلّ عنا يا) الى (الغالي يرخص لك).. أما من صادقني منذ البداية فقد كان يجاملني بقوله الغالي يرخص لك.. كل المحل على حسابك.. ادفع ما تشاء المهم ان تشتري.. الا أبو محمد صاحب محل الفلافل الذي ما أن يراني حتى

تعلو التكشيرة وجهه الكبير على جسمه الضئيل فيبدو كنبات الفطر مفلطح الثمرة ضعيف ساقها ... ورغم كراهيته لي صادقته رغماً عنه،... وبالنسبه لي فهذا المحل هو الأهم لأنه ولسوء حظي الأرخص فلا مناص في الشهور الأحد عشر خلا رمضان أن أتوقف قربه والتقط شطيرة فلافل أو شاورما في حال ما إذا (طبشتها) وأيضاً هو مهم لموقعه المتفرد في وسط عدد من البنايات التي تعج بالمحلات والعيادات ومكاتب التجار والمحامين والشركات والموظفين والموظفات والسكرتيرات بالطبع.

في هذا اليوم وهذه الساعة كان الشارع مقفراً على عادته وما أن وصلت بجولتي وأنا أتأبط رجال التاريخ وهمّ اليوم داخل الملف البني الى نقطة الانعطاف الى الخلف عند مقهى أبو عنبر الخالي من الرواد في هذا الوقت والذي أجلس فيه لوحدي كل يوم في رمضان أقلب صحيفة اليوم وأطالع حتى استوقفني أبو عنبر صاحب المقهى يسألني ان أساعد ابنته لبيبة في بحث مطلوب منها حول الطب عند العرب، لا سيما وأنني كنت قد حدثته طويلاً بجلسات الشاي والشيشة في مقهاه عن الفارابي والزهراوي وابن سينا واسهاماتهم العظيمة في الطب.. فقبلت طلبه.. ليصيح بصوته الجَهُوري وكأنه يأمر (بطلبيّة) الزبون من رواد مقهاه.. يا لبيبة، تعالي الى الاستاذ درويش.. أقبلت لبيبة من الغرفة الداخلية للمقهى تتهادى كما القارب دون دفة في عرض المحيط، أو كما الفيل الصغير يتراكض فزعاً للحاقَ بأمه!.. سمينة هي لبيبة وان كانت تحتفظ بمسحة من جمال لا بد أخذتها من أمنا الأولى حواء، لأن والدتها

ووالدها من ملوك الدمامة في العالم العربي. ولا أحسب جدودها بالنظر الى اخوتها الا من نفس الفصيلة!.. شقية، مرحة وهذا شأن كل البدناء الذين عرفتهم وأيضاً كانت خجولة الآنسة لبيبة.

تخوض أمعائي معركة طاحنة اشتياقاً للطعام، لا سيما وأن بطني مكمن ضعفي، ولما يبقى على موعد الافطار الستون دقيقة، والتواءات مصاريني تزداد حتى أحدثت أصواتاً أضحكت لبيبة التي وقفت مطرقة الرأس تشرح لي المطلوب في بحثها.. وسبحان مقلب القلوب وقاذف آفة العشق في النفوس.. فلم أتصور في حياتي أن أحب، وعندما أحب لا أحب الا عجْلاً.. وهذا ما كان فما كانت لبيبة رغم مسحة الجمال التي تغطيها وخفة الروح والحياء والمرح الا عجل صغير.

كتل من اللحم وأكوام من الشحم، مركب عليها عينان خرزيتان وفم بلوطي وأنف لا نهاية له، وشعر لم يستطع ان يصل الى أسفل اذنيها.. منفوش وبالأصفر والأكحل ملون، بجذور بيضاء خفية.. هذا الكائن الكتلوي المتكوم ذو الشعر الأشمط هو حماتي أعاذكم الله من رؤياها وجنب أولادكم لقياها، ومنع عنكم سماع خنفها وصهيلها.

نريد شقة في وسط البلد، وفرشاً من أكبر محل، وغرفة نوم خشب زان، وأجهزة كهربائية صناعة يابانية لا كورية ولا تجميع محلي، وسجادة في كل غرفة، ومطبخاً حديثاً، ولا تنسى فستان العرس على أحدث طراز وطبعاً الذهب والزهور، وحفلة الخطوبة ومهرجان الزفاف في فندق النخلة ذو النجوم الخمسة

وما سمعت بقصة النجوم تميز بين الفنادق الا منها ، من حماتي ام لبيبة.. ولعلمكم الخاص فان اسمها وهنا المأساة أيضاً (لطيفة) تصوروا !! هذا الكائن العجيب اسمه (لطيفة) وكان الأجدر ان يسميها أهلها (يا رب الطف) أو (لطفك يا رب) وليس لطيفة.. وأكاد اقسم لكم ان وزنها لا يقل عن المئتي كيلو غرام صافي، وما كان يحيرني فيها أمران.. كيف تنام ولا تختنق بكتل الشحم واللحم هذه وثانياً كيف لأبي عنبر الذي لا يقل عنها ضخامة ان يقضي منها وطره أو يقبلها لا سمح الله، والحواجز والعقبات أمامه لا يمكن تجاوزها!!.

لقد فرض القدر عليّ ام عنبر السيدة لطيفة التي أصبحت ترافقنا أنا وخطيبتي كالظل، لا دعوة على العشاء أو حتى على الفطور أو الخروج في فسحة في أحد الحدائق أو على شاطئ البحر أو التجوال في الشوارع، أو التسوق لمتطلبات العرس الا ونحن الثلاثة ان صح الرقم واعتبرناها واحدة نسير أو نركب أو نجلس أو نشرب أو نأكل الا معاً وان رغبت التفوه بكلمة نسيب أو حب أو عشق للآنسة لبيبة، كان لا بد ان ابدأ القصيدة بالتغزل بأم عنبر.. يا شمس النهار، يا درة التاج الانجليزي.. يا بدر التمام.. يا كهرباء الشوارع.. يا سارية العلم يا غصن نقا مكلل بالذهب.. يا عبير الزهور.. ثم أتودد بما يتبقى للبيبة شريكة المستقبل المظلم كما تجلى بعد ذلك.

وأحدثكم ولا حرج وسأوجز عن المأساة التي حصلت في حفل الخطوبة حيث حصدت حماتي وأولادها العشرة من غير شر جميع قوالب الحلوى المخصصة للمدعوين الذين خرجوا

يشتموننا، وان كان (المعازيم) في العادة بمجرد ان تذوب قطع الحلوى في أفواههم حتى يبدأوا بالتهامس والغمز واللمز على العروسين وأصحاب الدعوة، الا انه في حالتي هذه أضافوا للغمز واللمز والتهكم الشتيمة الصريحة التي كنت أراها من على مقعدي في صدر القاعة بجانب عروس المستقبل المظلم في وجوه الحضور.

الا انني تداركت هذا الأمر في حفل الزفاف الذي استدنت لاحيائه حتى بدلة العرس فسلمت ادارة الطعام والحلويات لأبو محمد بياع الفلافل الذي يكرهني عله يحبني، وأبو موسى الساعاتي الذي نصحني بالقاء ساعتي (العِشرية) في الوادي، وصديقي جميل المالك الأصلي لبدلتي الخضراء اليتيمة فكفّوا الأيدي العشرين لأبناء أبو عنبر وأم عنبر، الا انه ما أوشك الحفل على نهايته ومهجتي تتأرجح صعوداً وهبوطاً بين حلقومي وقدمي وكنت وعروسي نتهيأ للنزول من مقعد العرس حتى وقعت الفاجعة!!.. انفجرت أم عنبر بالبكاء والنحيب كماسورة ماء انكسرت فجأة، ثم انبطحت أرضاً كمن يتقي شر غارة للطيران المعادي، وفقدت الوعي!.. وساد العرس الهرج والمرج كما يقولون وما بين صراخ النسوة وهمهمة الرجال المدعوين، وانخلاع قلبي الذي فقدته من صدري تداركنا الأمر من خلال طبيب حاضر بالحفل قام باعادتها للوعي ويا ليته ما فعل.. انطلقنا لركوب السيارة المزينة الخاصة بنا كعروسين والتي يقودها أخو لبيبة الأكبر الاستاذ عنبر، ومن المفترض كما جرت العادة أن أجلس والعروس في المقعد الخلفي.. وهذا ما لم يكن وحصل

ما لم يكن لا على البال ولا على الخاطر.. جلست أم عنبر مع ابنتها عروسي لبيبة في المقعد الخلفي وقذفوا بي للجلوس الى يمين الاستاذ عنبر الذي يقود السيارة.. بين ضحكات المدعوين يحملقون بنا في الشارع وتعليقاتهم اللاذعة وهمساتهم غير البريئة.

وصلنا في موكب السيارات الى باب البناية في وسط المدينة حيث استأجرت شقة متواضعة.. بعد تقبيل عديد اللحى والشوارب للحصول عليها دون دفع الايجار السنوي كله مقدماً.. وما ان نزلنا من السيارة حتى بدأ الصراع على ركوب المصعد الذي احتلته لبيبة وأم عنبر.. فصعدت أنا وعمي أبو عنبر على أرجلنا على السلالم، يتكئ عليّ عقب كل ثلاث درجات حتى خلع كتفي الأيمن والمرتبط بيدي اليمنى بالطبع كما تعلمون وهي اليد التي آكل فيها وأكتب فيها وأصافح فيها.. فلم استطع ان أودع مدعواً على باب الشقة الا بشق الانفس، وبقي معنا عشرات أخرى منهم أبوا -والإباء من شيم العرب- الا ان يآنسونا حتى غرفة النوم.

قبل ان تحط أرجلنا أرض الشقة، أصدرت حماتي أم عنبر أوامرها وباصرار ان أحمل عروسي، وحمداً لله انها لم تطلب حملها هي أيضاً، ورغم ان ابنتها سمينة بعض الشيء الا ان وزنها مقبول، لكن اضطرابي وقلبي المنزوع وكتفي المخلوع لم يقدروا تحمل ثقلها، فبين نظرات عدد من المدعوين الذين أبوا الا مرافقتنا حتى غرفة النوم زلت قدمي والعروس بين يدي، وتمددت واياها على باب غرفة النوم، ولولا ستر الله وحده

لانفلق رأسي نصفين من جراء ارتطامه بالجدار الا ان العملية لم تخل من الخسائر المادية والأمر ان البدلة التي ارتديها مستأجرة كما تعلمون وانشقت جهة فخذي الأيسر!.. تحولت النظرات كالعادة الى همهمات وابتسامات.. وتحاملت والعروس على نفسينا ودخلنا غرفة النوم.. وبعد توزيع احدى أخوات لبيبة لكؤوس (الشربات) على من لازمنا من المدعوين، قاموا مشكورين بتوديعي دون ان يمد أحدهم يده لمصافحتي رفقاً بيميني ويساري هذه المرة.

لم يتبق في الشقة بعد مرور الساعة الا صديقي جميل وأبو عنبر وأم عنبر وأخوة عنبر التسعة وأنا والعروس ابنة أم عنبر، وأصبح الوضع مملاً.. ماذا ينتظرون؟! لا أحد يدري!.. تفوه جميل صديقي المالك الاصلي للبزة الخضراء اليتيمة التي أحوزها.. يلا يا جماعة لندع العروسين يناموا.. وكأن هذه الجملة كانت المفتاح أو كلمة السر لانشقاق حنجرة أم عنبر التي فقعت بالصوت وانفجرت بالصياح والنحيب على ابنتها التي تركتها وحيدة!! هكذا كانت تندب رغم انه تبقى لها عشرة أبناء أو عجول.. وحماي أبو عنبر زوجها.

ولما كان صوتها مدوياً كالرعد، عاد عدد من المدعوين من أسفل البناية، وبعض الأجوار، ليستطلعوا الخبر فاذا بأم عنبر ترفض مفارقة ابنتها حتى في هذه الليلة المشؤومة.. وما بين محاولات حثيثة وتحايلات عديدة وعمليات اقناع مدهشة، واسترضاءات لا حد لها.. وبين تصلب أبو عنبر وتعنيفه لزوجته التي فضحته كما كان يقول.. أصرت هي على عدم ترك ابنتها

لوحدها!.. فخرج المدعوون ثانية والأجوار وآل عنبر جميعاً وبقيت هي مرابطة على باب غرفة نومي أنا وابنتها.

لم استطع ان أغمض عينيّ ليس فقط بسبب الثعبان، حارس الكنز خارج غرفة النوم. والتي ملأت سجادة قاعة الضيوف ببيتي ببقايا (البزر) وهي تسلي نفسها بمشاهدة (المرناة) وتضحك بصوت عال حتى الصباح، وانما بسبب أرقي وانزعاجي من حرمنا المصون التي نامت وتركتني أعاني من زئيرها أو عوائها المنفلت من أنفها المشخار.

وما ان خرجت من الغرفة وأنا ما زلت بحلتي المستأجرة والمشقوقة في الصباح لأعد أكواب الشاي.. حتى همد صوت التلفزة ودلفت أم عنبر لتنام محتضنة ابنتها.. فنمت لثلاثة أيام على الأريكة.. وفي اليوم الرابع كان أبغض الحلال مفتاح حريتي الذهبي.

تونس ٢٣/١/١٩٩٥

اخترت ان اتحول الى دمعة!

قد يكون من غرائب الصدف ان يكون لقائي الأول في تونس مع تلك الفتاة الفاتنة في ريعان الصبا ونضارة القلب النابض، لم تتعد كلماتها الأولى التي اطلقتها باتجاهي والتي بللت بها شفتيها: سامحني، هل لك ان تدلني على نهج عزيزة عثمانة؟ التفت اليها رأسي المبحر بعينيه دوماً نحو البعيد ليرى على الأرض القريبة جمالاً انثوياً ما لا عيناه من قبل رأت، وصوتاً نسوياً مالا أذناه قبله سمعت، وطمأنينة تشع من نجمين خطرهما أعتى وأعظم على قلب البشر.. فما بالك بقلبي الملهوف، بالتردد والتأزم والتشكك محفوف، المعلق بخيط رفيع تتقاذفه الرياح لا تهدأ حتى تهب.. (نعم) هكذا أجبتها، فانتظرَت ان أتم الجملة، ولم تدري ان هذه الـ (نعم) كانت مزيجاً من التعجب والانشداد بعد هول صدمة رؤياها الأولى.. لم أكن قد تبينت سؤالها بدقة لارتباطي بالابحار نحو البعيد فكانت استجابتي بمثابة انتقال من حالة الى حالة، وكأنها فهمت فيّ هذا.. فكررت السؤال، تنطلق الحروف من ثغرها الرطب حلوة طَلِيّة.. سمعتها بجرسها اللذيذ حرفاً يلحق بسابقه وآخر يجذب لاحقه، حرفاً حرفاً وكلمة كلمة سالت من فم الغدير رقراقاً صافياً دون ألوان مزعجة أو أصوات هادرة، بل هادئة لذيذة كصوت قضم قطعة من المثلجات أو كصوت انسياب الماء من على سطح صخرة

ملساء.. تمالكت نفسي، واستعدت مقود ذاتي ولملمت ما تطاير من أفكاري وذبت في بحر سمائها فلا أكاد أميّز ولا يكاد أحد يتبين لي خاصية غيرها، رددت عليها وقلبي من مربضه يكاد ينخلع ويتعاظم حجماً حتى يلف خيوطه الحريرية حولها.. انه في النهاية البادية من هنا لهذا الشارع، شارع معاوية بن أبي سفيان على اليمين وحيث يقف الى يسار فتحته شرطيان يحرسان أحد المكاتب.. شكراً، هكذا قالت، فأجبت ان لا شكر على واجب وأردفت: هل تريدين الوصول الى فندق لطيف؟.. قالت: في الحقيقة، انني أبحث عن عنوان صديقة قديمة لي تقطن قرب هذا الفندق.. فعرضت عليها ان أوصلها لهناك لا سيما انه في طريقي حيث لا يبعد بيتي كثيراً عن الفندق، الا انها رجت ألا يكون في ذلك مشقة عليّ.. يا لله، أمشقة تظنين لراكب على بساط الهوى، قلبه في الحب من النظرة الأولى تدثر وعقله ذوى! يا ليتك تشقينني حتى لا أعرف لذة الا في مثل هذه الشقاء، وتشقّين عن قلبي حيث لن ترين الا جروحاً وشقوقاً أقعدتها السنون في قلبي المتعب الشقي، يا ليتك تشقين عن قلبي فتتحسسين فيه سخونة الدماء المتدفقة، والخلايا المشتعلة بلظى قسوة الاغتراب في بلد الأحباب والخضرة والشباب، والانقلاب على دنيا الضياع في متاهات القادة ودهاليز الساسة باعة الأحلام ومنشئي الأكاذيب صانعي الاشاعات، أرباب الزيف والخُلّب.. هم، وليسوا حصراً بل وكل بطانتهم وحاشيتهم ومحظييهم ومحنطيهم واذنابهم ومقربيهم.. حاصرتني هذه الأفكار بشدة وأنا أصطحب (سمية) هذا اسمها بعد ان تعارفنا

خلال المسافة القصيرة الفاصلة بين زمن اللقاء ومكانه القريب، وبيت صديقتها المجاور.. يمامة لم تعرف القفص، وصفحة لم تكتمل هي، حلوة الكلام، سريعة البديهة، معتدلة بحديثها في اعتداد وعناد لم تخطئه عيني فيها منذ البداية، يا ليت الأمتار القليلة التي سرقتنا نتحادث دقائق قليلة تحولت مئات الكيلومترات وعشرات الساعات حتى ترتوي الأرض الجدباء المتشققة بحبات المطر تتهاطل دون حساب أو كتاب.. كل هذا وفي مخيلتي أبيات الشاعر الكبير نزار قباني

وكم شفة بها عطش الدوالي
عليها الحرف مبتهل ذبيح
يراودني وينكر مدعاه
فارجع والجروح لها جروح
واسترضي العقيق لعل فجراً
يشق فاستريح وتستريح
أخائفة الشفاه الا اعتراف
تدمدمه العرائش والسفوح

ما كدنا نصل الى بيت صديقتها قبالة (نُزُل لطيف) حتى كان الحب قد ملك على مجامعي فأعمره، فلم أكن لأوفر لا اللفتات أو النظرات ولا الاشارات العابرة وغير العابرة.. سنون مرت في لحظات.. أشع وجهها حتى أضاء المساحة الممتدة تضم المنازه السبعة بل التسعة من ضواحي مدينة تونس، ليعلن دون خفر وبلا وجل عشق اللحظة بحجم السنين وكأنها تقول ان (في فسح القلوب لكم ديار وذا معنى القلوب العامرات)

دقت بقبضة يدها على باب الشقة.. فتحت طفلة صغيرة سمراء جميلة أهلاً وسهلاً من أنتم؟، هكذا بادرتنا باسمة.. ردت (سمية) اننا أصدقاء اختك الكبرى.. فركضت الصغيرة الى الداخل تستحث أختها الخروج للقُيا الضيوف.. أحسست بحرج الموقف فلا صفة لي في هذا اللقاء واغتنمت الفرصة لاستسمحها الانسحاب على أمل اللقاء.. فثبتتني نظراتها في مكاني وقالت: لا ملامة عليك.. ستكون أنت أنا! فتخير مقعدك مني!.. في قلبي من الممكن ان أوسدك فلا تحس الصقيع أو التعب والشقاء، في عقلي ان شئت امكنك فلا تيه ولا ضياع وفي خلايا جسدي لتكن أنت (نواة) كل خلية فيه، أو كن مصل دمي لا تدع مكاناً مهما صغر أو دق في عروقي الا وجريت فيه دون حسيب أو رقيب أو.. وقبل ان تسترسل في طرح خياراتها لي، استمهلتها بلطف ونظرت ملياً في وجهها المشرق الباسم واخترت!!.. غير ما ذكرت لي اخترت، ان اتحول الى دمعة كبيرة في عينيها تملأ غدتها الدمعية اخترت.

فالتصق بأجمل ما فيها وأبرز ما فيها لا أفارقها الا بأجزاء مني لأعبر لها عن شجونها وآلامها وأحزانها وتعبها القادم، شجوني وآلامي وأحزاني وتعبي حين تبكي، ولأكون لها دموع الفرح والبهجة والحبور والنشوة التي لم أعرفها.. تضاءَلْت، تقلّصْت، انكمشت، تكورت وقفزت في عينيها دمعة كبيرة استقرت في الغدة الدمعية لسمية التي ما لَبِثْتُ بعدها ان شَعَرْتُ بالفرحة للمرة الأولى في حياتي وذلك إثر تهاطل قطرات باردة على وجنتيها الوضاءتين وهي تحتضن صديقتها التي

فارقتها منذ عشر سنوات مضت.

حملتني معها الى البيت باكية عليّ تهاطلي من عينيها، لينهمر الغيث الدمعي ثانية، وكأن السماء جادت فلم تبخل، ووجدتني أتجدد بالدمع الشجي فاقفز منها اتجاوز الأطوار والمراحل واقف قبالتها ملقيا بكل قهر السنين الماضية وشقاء الأيام التالفة مستعيداً سنوات طويلة ضاعت بالبحث عنها بعيوني المبحرة دوماً نحو البعيد وبدموعي المتحجرة ما تساقطت الا كلّي من عينيها، من عينَيْ سمية الفاتنة.

تونس في ١٩٩٥/١/٣٠

عائشة والسيدة (س)

جلست احتسي كأساً من الشراب معهن، يحاورنني وأحاورهن، يكلمنني وأكلمهن لا أكلّ في مناجاتهن ولا ألين، ولا يبخلن عليّ الشراء والوصال، لا اتعجلهن ولا استحثهن، فهن ابداً في الموعد لا يتأخرن، يأتين، تارة متثاقلات يترنحن وأخرى مسرعات عاديات ضاحكات وفي الحالتين لا يأبين عليّ ولا يستعصين طائعات مختارات يقدْمن ويعرضن أنفسهن الواناً وصوراً مجردة عارية لا يسترها قميص أو غلالة، أو منقبات من قمة الرأس حتى القدم أبذل الجهد في التعرف على تفاصيلهن حتى يبدين مشرقات منيرات.. وفي هذه الجلسة كن يتوافدن جماعات جماعات لا يطرقن الباب ولا يستأذن، كل فكرة منهن تتخير مقعدها وتجلس معي حتى كاد ميدان ذهني يمتلئ عن آخره لولا ان جاءت هي ممسكة بيدها بمسدس محشو بآلاف الرصاصات، ودون سابق انذار قامت باطلاق النار على الآلاف، من الساهرات المناجيات العاريات منهن والمنقبات تجندل منهن ذات اليمين وذات الشمال، وهي بمجزرتها هذه فرحة منتشية فالوحدانية دينها، والاستحواذ منطقها، والظن مبدأهاَ وقتل ما غيرها بغيتها.

جلست احتسي كأساً من الشراب معهن، فلم أرى الا آلاف الأقداح دون اياد أو شفاه أو ضحكات أو بسمات ومن خلف

الستار أطلّت بوجهها الملطخ بدماء آلاف الأفكار المعذبة والجريحة والمقتولة وتقبض بيدها على سلاحها الناري وتجرَعت جميع الكؤوس المليئة المتبقية واستطالت واستعرضت حتى فاق حجمها سعة الميدان فبدأت الجدران تتشقق والثقوب تتعمق والبنيان يتهدم.. لقد قفزت السيدة (س) في منتصف الميدان الكبير محدثة الرعب كما الحقد، تمد أولئك الساهرات المناجيات لها أياديهن أو عيونهن أو ابتساماتهن.. ان ها نحن اخواتك فلا تقتلينا، أشغفت بالهلاك وأدمنت التلاشي ولك في كل منا قطعة أو جزء أو صديق أو حبيب، ولكن الكراهية لا ترى الحب الا عدواً كما لا ترى الأنانية الآخرين الا منافسين ولا يرى الارهاب التسامح أو اللطف الا قوم من الضعفاء أو الأذلاء المساكين أو الطغاة متدثرين بعباءآت الآخرين، فرمت سهام النهاية وطلقات الحارق الخارق وبدت في حلتها الدامية كرعب يوم مجزرة الحرم الابراهيمي فلم اتجرع من الكأس الا القليل حتى احتلت واستعمرت وأقامت فاستوطنت وجندت فتوسعت.

كان أحمد عاملاً مجداً في المصنع، يقضي نهاره لا يفارق عبادته، عمله، آلته يتلمسها بعشق ويتحسسها برفق حتى ألفته وألفها وأصبح طعم حياته مربوطاً بوجودها فأعطاها بقدر ما منحته ووهبها ولم يبخل فلم تخذله حتى كان ذاك اليوم الذي أطلت فيه عائشة بملامحها الأجنبية، عيون خضراء وشعر أصفر وبشرة بيضاء مشوبة بالحمرة..

قف.. هكذا قالت السيدة (س) من هذه الشقراء، أنا لا أحب الشقراوات وشعري أسود فاحم.. فأجبتها انها احدى

صديقاتك، حبيباتك، اشرق نجمها فلاحت في الأفق فهزت رأسها رفضاً وقالت كيف يكون لي حبيبة وتسبقني اليك، وكيف تكون لي صديقة سواى لديك لتكن عائشة ذات شعر أسود فاحم وعيون عسلية فلتكن هي أنا، لم هذا التعدد وهذا التنوع وكل العيون ما سواي حائل وكل الجمال ما عداي زائل.. واذعنت فلويت عنق الأفكار ثانية واسترسلت.. ولما كانت عائشة ذات العيون العسلية والشعر الأسود الفاحم أول بنت تدخل المصنع، تعلقت بها عيون الشغيلة الذين لم يألفوا العمل مع سيدات فتاهت السيدة (س) طرباً وتمايلت بجسدها خيلاء وعجباً وقالت زدني يا هذا ولا تقلل فزدتها وكتبت: ومر الاسبوع الأول على أحمد وهو يدلل عشيقته ويناجيها كالعادة لم يتغير ولم يتبدل وما تعلقت عيناه الا بعدد الوحدات الصناعية المنتجة من آلته يسعى في تحفيز ذاتي للتفوق.. من الف وحدة الى الف وخمسين الي الفين حتى أكل الحسد والحقد قلوب عدد من زملائه العمال فصمموا على كسر عنفوانه وتحطيم عمله بقذف عائشة في قلبه وهنا اعترضت السيدة (س) وهددتني بالمسدس الملقى أمامها على الطاولة وقالت ان عائشة ليست العوبة في يدك وأيادي أولئك العمال لتتقاذفوها أو لتتفقوا على تصديرها للسيد أحمد ذاك التائه أعمى البصر والبصيرة الذي لم يلحظني ولم يرني ولمدة اسبوع كامل فقلت لها ومن تحدث عنك يا سيدتي.. فقاطعتني قائلة ومن غيري ذات حسن وجمال وبهاء ودلال سأعذرك لآخر مرة وتابع ولا تخطئ فعدلت المسار ثانية ليلتفت أحمد منذ اليوم الأول لوجود عائشة وبها

فتن، جميع العمال المُجِدّون منهم والكسالى أصبح لخطب ود عائشة يصحون باكرين ولا يوصون بعضهم البعض التغطية على غيابهم فكلهم قبل موعد الدوام في مواقعهم ينتظرون وصول عائشة ليردوا عليها خمسة وأربعين وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أو خمسة وأربعين صباح النور.. من المدير الى رئيس العمال ومسؤولي الأقسام والعمال وأحمد الذي بها كالآخرين فتن، وقلبه بها تعلق حتى أهمل عشقه الأول وحبيبته الأولى فتناقص انتاجها الفين فألف فأربعمائة.. لقد شغلت قلوبهم جميعاً فمنهم من وجد في ذاك دافعاً للجد وتحسين أداء العمل ومنهم كما هو شأن أحمد من أعماه الصوت الأنثوي عن نداء الواجب ومحبته العمل فتتالت عليه الانذارات فالخصومات، وعائشة عنه وعنهم جميعاً لاهية.. ابنة المخيم الأصيلة تعرف اين تطأ قدماها، ولا تحرف عيناها الا باتجاه خدمة أهلها ولا تبيع صوتها ولا تؤجره.. وابن حارتها أولى بها.. لم يصدم أحد كما أحمد الذي أحبها وحلم بها ليله ونهاره فلم يصدق اشاعة خطبتها أو زواجها القادم واعتبر ذلك من كيد الكائدين أو تشنيعات الكارهين، يقدم لها افطاره فتشكره باسمة، ويلاطفها بالسؤال عن أهلها فتجيبه مقلة والبسمة لا تفارق شفتيها، حتى أصبح يشبهها بكبار الممثلات أو الفنانات أو يقارن شعورهن بشعرها وحواجبهن بحاجبيها وعيونهن بعينيها..

و.. وهنا امسكت السيدة (س) بالمسدس وصوبته نحو دماغي مهددة بنسفي فلا تبقي لي بنتاً واحدة من بنات أفكاري الوليدات، ومتوعدة انها ستقضي عليهن ولما يبلغن الفطام

بعد فكيف اشبه عائشة قرينتها بأخريات حيث رفضت ان تعقد أى مقارنة بين عائشة في ذهني أو حتى عبر أفكار أحمد المستمدة من بنات أفكاري وبين كبار الممثلات أو الفنانات أو جميلات العرب وأطلقت مئات الرصاصات التي حطمت في أحمد دافع العمل وحافز الجد وطبع الاتقان فتوانى عن واجباته وتكاسل عن وحداته الانتاجية، وعائشة في عملها عن خدمة اسرتها امها وأخوتها الصغار لا تحيد،.. الله يرحم والدها الذي قتلته رصاصات الغدر وهو بين يدي الله في الحرم الابراهيمي فترك لها وهي كبرى أخوتها همّ ومسؤولية رعاية عائلتها، فأغلقت قلبها الا لمن سيستحقه وامسكت عملها بيديها وعقلها فكانت روح والدها الطاهرة المرفوعة الى عليين تحف بها من كل جانب تصونها وتحرسها وتنير لها الطريق.. أأعجبك هذا يا سيدة (س)؟ نعم أعجبني، هكذا أجابت ولكن الأصل في قصتك هذه ألا تكون متضمنة العشق والغرام وانما القتل والانتقام فكان الأحرى بي عفواً أقصد الأحرى بعائشة ان تنتقم لوالدها وتسحق المحتلين لا أن تلتحق بصفوف العمالة والشغل وتعرضني واياها لعيون الآخرين فأجبت السيدة (س): وهل كنتِ تظنين خلو البلاد من الأيادي المشققة والعيون الساهرة والعقول المتعلمة وسيلة دحر للاحتلال وقضاء على المستعمر فأشاحت بوجهها وتبرمت فانطلقت مع عائشة وأحمد الذي استعذب ان يحلم بها حتى أهمل عمله فلم ينفع معه نصح الناصحين ولا لوم اللائمين حتى أطل صباح أحد الأيام فلم تأتِ عائشة الى العمل فاستفقدها جميع زملائها ومرت أيام أربعةَ

ولا خبر، فتطوع عدد من زملائها وعلى رأسهم أحمد للبحث عن دارها في المخيم القريب حتى وصلوه والأهازيج والأغاني تملأ جو المخيم وقلب أحمد يتأرجح خوفاً من ان يكون لعائشة صلة بهذه الأهازيج والأغاني فتصبح لكل ما اعتبره شائعات حول خطبتها حقيقة وتصور في أحلامه التي لا تنتهي انه سيفاجأ بها بابتسامتها المحببة والى جانبها عريسها (بالقمباز) و(الكوفية) وساءته هذه الخواطر فلماذا لا يكون هو صاحب العرس الجالس جوارها ومن هو ذاك الذي يتفوق عليه شباباً وفتوة حتى يظفر بعائشة التي أحبها حباً ملك عليه كل جوارحه، يستحثون الخطى بين الجموع الواجمة قرب أحد بيوت المخيم المتداعية والتي ينطلق منها الزغاريد والأهازيج.. وهنا مع خفوت ضحكات السيدة (س) بدأ جسمها ينحل ولونها يصفر وعيناها تذبلان وآهاتها تعلو وأنفاسها تتقطع، وتتحشرج وتجف من سكرات الموت حتى أغمضت عينيها دون وداع فأراحتني في كتابة النهاية دون فجاجة تدخّل منها أو سرقتها للفكرة أو ارهابها لبنات أفكاري الآخريات.. وصل أحمد وثلة من زملائه عمال المصنع الى البيت الذي يؤمه جميع سكان المخيم قبل ان ينطلقوا للسؤال عن دار عائشة وما احتاجوا لذلك فما البيت المقصود الا بيتها، رفضت والدتها تقبل العزاء بها وأحالت مأتمها الى عرس لا عريس فيه الا الوطن الذي روّت ترابه الطاهر بدمها المشبع بروح والدها شهيد الحرم الابراهيمي، فما كان الانتحاري الذي فجر نفسه بجنود العدو الا عائشة الشهيدة العائشة.

عمان في ٥/٢/١٩٩٥-٥ رمضان ١٤١٥

صاحب الفتنة الخروف!

وقف أمام جمهوره يزعق .. ويصيح مدعياً أنه يغني وما هو بالمردد، يتمايل مع هدير آلات الوتر والنفخ والطبل، ولا تكاد صوت الموسيقى تتعالى الا وقفزات آلاف المتباذلين أو المترفين أو الصبية المبهورين أو الفتيات الحالمات تسبق أصواتهم وصرخاتهم.. آلاف الأيدي تتعالى متعانقة أو متمايلة أو متحايلة!، والحضور النزق ذو الأجساد العتيقة أو الطرية يتهادى تارة لليمين وتارة لليسار دون اعتبار لتقسيمات سادت في زمان مضى وانقضى.

في انفلات الخِصر نحو اليمين يصعق كل ذو لب من أصحاب اليمين الذين قدسوا التاريخ وتمسكوا بالماضي وما رغبوا في الجديد وأهانوه، وفي ارتداد الردف نحو اليسار، ينشق الأفق منبلجاً عن أعين منتفخة، وأكف محمرة وأنفاس متقطعة من أصحاب اليسار الذين عبدوا التحرر وآمنوا بالتقدم وقاطعوا التاريخ ورسموا عوالم جديدة سرعان ما تهاوت وتداعت.. لتحقق أمة اليسار وأمة اليمين انتصار الخَصر والرِدف فقط.

(المطرب) الألمعي و(الفنان) اللوذعَي ما زال يزعق، ويبتسم!.. ان رأسه في نشوة وسكر لا يدانيه لذة أو ليلى، فكل هذه الآلاف فارغة الرؤوس تصنع له كتلاً من الزخرف والخيلاء، وجبلاً من (الأنا العليا).. جعلته يعانق السحاب

ويبصق في قرارة نفسه على هذه الحشود التافهة تفاهة ما يردده من تفاهات هو ذاته يمجها.. فلا لحن شجي ولا صوت ندي ولا علم ولا عليم، يذرع الركح جيئة وذهاباً، والصبايا الفاتنات منهن والظانات بأنفسهن ذلك بين باكية ونائحة أو صارخة وصائحة، وما بين ملوّحة بيديها أو متمايلة برأسها أو منتزعة (لصواميل) التثبيت في مفاصل عظامها حتى لتكاد تراها مبعثرة متناثرة متشظية.. وما زال صاحب الفتنة (الفنان) اللوذعي يبتسم، مستخفاً بقرارة نفسه من الجموع الشاخصة نحوه، والرؤوس الفارغة التي تخلصت من كل خلايا التفكير ان وجدت في دماغها، واستبدلتها بصور وزعيق ذو لجج.. وما زال يبتسم ويتكسر أمام الجمهور متدلعاً.. يقدم رجلاً باتجاه الجماهير ويؤخر أخرى.. مثيراً لحماس صبايا ما زلن على مقاعد الدراسة استبدلن الانصات لدروس العلم والفهم بالتعبد في محراب صاحب الفتنة (المطرب) المشهور والمعروف بإسم حرنكش الخروف.

كان حرنكش يسكن حارة من حارات الحي القديم في المدينة، بين براميل الزبالة وأكوام النفايات.. وبين صراخ الأجوار، وهمسات الليل في البيوت المتراصة المتلاصقة، والعلاقات البالية المنفلتة من قانون الحقيقة.. في هذه البيئة عاش حرنكش الخروف.. لقد كان الحي الذي سكنه وعائلته مغرقاً في الفقر الذي أدى بالكثير الى فساد الرؤى وعتامة الفكر وسقوط المفاهيم، فخرج من المدرسة الابتدائية غير آسف واتجه كما ظن نحو قبلة الفن.. فكان رواد الغناء والطرب قدوته دوناً عن

رجالات الفكر وأعلام التراث والتاريخ، وعلماء الرأى والحجة ومشاهير القادة والساسة، أو حتى أولئك العظماء البسطاء من المكافحين المنافحين عن لقمة عيشهم بابداع التجارة أو الحدادة أو النجارة أو الصناعة.

فلا مثيل لعبده الحمولي ولا خليفة في الدنيا لعبد الوهاب ولا نظير لعبد الحليم والحياة بلا طعم دون فايزة أو صوت كوكب الشرق.. مزق الكتب وشق الحجب وركب سفينة (الفن) أو هكذا ظن! فأغلق باب عقله منذ الثامنة من عمره وفتح نافذة للصور وللأصوات تصب فيه صباً حتى أصبح لديه الحلم بصعود ركح المرسح كالفوز لدى المرشح لمجلس النواب بمقعد في (البرلمان) أو كالنصر لدى قائد عسكري في معركة فاصلة، أو كنجاح طالب متشكك في الثانوية العامة، أو كطوق نجاة لموشك على الغرق، أو كمريض للتو شفي من عملية تساوت فيها احتمالات النجاة والموت..

لم يملك من مقومات الغناء شيئاً فلا صوته يسعفه وما أكثر المغنين أمثاله.. حتى أصبح كل من يعجب بصوته في الحمام يسعى جاهداً لحشر صوته في شريط عليه صورته البهية، ولا عزف يتقنه ولا ثقافة والحمد لله تسعفه ولم يملك حتى من جمال الصورة الا غزارة شعر التقت مع ملاحة وجه وقباحة صوت حتى لقّبه اقرانه بالخروف فعلق به اللقب حتى اشتهر به.

لكن الخروف كان جلوداً بل وكان لحوحاً الى درجة الابتذال.. فلم يتورع من أن يلقي بنفسه على عتبات المغنين وأشباههم.. لم يترك صالة أو مسرحاً أو فندقاً يعتب عليه حتى حالفه الحظ.

ليكون أحد المرددين في فرقة موسيقية سرعان ما أصبح مغنيها على اثر موت نجمها الرئيسي في نوبة من الكآبة، وتنقّل من ملهى الى آخر يغني للمخمورين وأنصاف الأموات، ومع تسجيله لأحد أبرز أغانيه وأكثرها ضجيجاً باسلوب الصورة السريعة (الفيديو كليب) ضربت الأغنية في سوق أمة الرؤوس الخاوية المخروقة ليضرب هو ذاته كفاً بكف متعجباً من انتشار أغنيته تلك، رغم قناعته وجميل ان لديه قناعة، بأنها الأكثر صخباً والأكثر سخفاً والأكثر تفاهة فنقلته هذه الأغنية من أقصى المدينة الى اقصاها في الحي الراقي منها الذي طالما مر به منكس الرأس ممنياً النفس الاقامة بين جدران أحد بيوته المزركشة من الخارج العارية من الداخل.. لقد أقام فيه فخالط فاسدى الرؤي، عتماء الفكر، ساقطي المفاهيم وأولئك عشاق ردحه (الراقي).. لقد تحقق حلمه واعتلى الركح وسكن الحيّ المزركش العاري ففاز وانتصر ونجح !؟.

كان ما زال يترنح على الركح، يمد قدماً ويؤخر الأخرى وتجول في رأسه مئات الصور المشكلة لمراحل حياته.. حتى أدرك انه نزل على عتبات المسرح باتجاه الحشود الصاخبة الخائرة والكل يحاول تلمس صاحب الفتنة شفيع الولايا والغلمان.. يكاد يحلق في الفضاء من فرط الشعور بالغبطة والعظمة الخاوية.

وعلى الدرجة الأخيرة الفاصلة بين فضائه وظلمات الجماهير المتراخية المتخاذلة المتباذلة سقط، نعم.. لقد زلت قدمه فسقط فلماذا تعجبون؟! فكثيراً ما يقع ويسقط الناس حتى رؤساء

الدول الكبرى كانوا يتعثرون فيسقطون، فما له لا يسقط هو أيضاً، وجمال سقطة من هو مثله قد يزيد من فتنته.. زلت قدمه الرشيقة فهوى أرضاً كالثور المثخن في حلبة المصارعة.. فصرع بسقطته عشاق الفراغ واللاشيء الممتزج بهدير المعازف، وصوتِ نعيبه أي نعيب حرنكش الخروف.

مع سقطته هوت قلوب، وشحبت وجوه، وخرجت الآهات والتأوهات.. وبمساعدة المرافقين الذين حاولوا دون هبة الجماهير المناضلة لانقاذ الخروف.. قام من سقطته فتمزق سرواله من الخيط الملتصق بالأخدود الفاصل بين اليتيه بصوت فرقعة انطلقت كالرعد في سماء الصمت العاري، فجعل الصالة دون وعي والوعي فيها منذ البدء مفقود تضج بالضحك.

أصعدوه الركح ثانية، وتوقفت الفرقة لدقائق الى ان استبدل حرنكش الخروف زيه، وعاد يبرق من انعكاس الأضواء على الأصباغ الملطخة لوجهه، ومن تماوج الوان ردائه مع حركة جسمة والضوء الساقط عليها.. انتهت الحفلة كما ابتدأت وما كادت الا وحرنكش قد أخذ التعب منه كل مأخذ.. القى بنفسه على أول أريكة صادفته في الكواليس وأغمض جفنيه: شوارع متسخة، وأحياء مكتظة بالكائنات الحية، وفارغة من كل مباهج الحياة، حوائط واطئة، وبيوت متداخلة، عتبات متقاربة، وأصوات باعة الخيار والخس تتداخل مع باعة الكاز والغاز، نساء تفوح منهن رائحة الثوم والمقالي، أو رائحة مساحيق الغسيل ذات التركيبات الرخيصة والضارة.. وأطفال صغار أشباه عراة يلعبون باغطية علب الكولا، من بينهم كان هو..

الطين يملأ الأزقة، ورائحة العفن تحيط بالبيوت المبتلة كما تحيط بذاك الحي الراقي الذي سكنه حديثاً، ولا ينسى تلك الرائحة التي تنتشر من ثنايا بطون نساء الحي، وأبطيهن، وأفخاذهن والتي أبداً طغت على ضعف محتويات ذاك الوعاء الكبير الذي يتخفى تحت شعورهن الطويلة أو القصيرة.. أو قُلْ عديم المحتويات البتة غالباً.

صور تتقافز في مخيلته، وتتداخل على حركة المحيط حوله، والذي يتدافع محاولاً الوصول اليه وهو خارج باتجاه مركبته التي يحف بها المعجبونِ والمعجبات من المراهقين والمراهقات.. المبهوتون به والمبهوتات، يخرج في خيلاء ونشوة، وما زال يبتسم، ويُلح على ذهنه الضيق ضيق السراويل المشدودة اللصيقة (التايت) سؤال استاذه عندما كان في الصف الابتدائي الثالث عن عدد وأسماء فصول السنة؟!.. حينها لم يعرف الاجابة، وما أكثر الأسئلة التي فشل في الاجابة عليها، ولكن هذا كان الفاصل فيها والذي أدى به لحسم خياره بالخروج من مقاعد الدراسة الى قارعة الطريق.. لقد سأله الاستاذ فصمت حرنكش الخروف (الألمعي) و (اللوذعي) وما نطق.. فانفجر الصف بالضحك وطرده الاستاذ، فطرد العلم من دماغه واستبدله بالضجيج والفراغ.

لا يكاد يخرج من خيالاته الا وتعاوده أحلامه.. طوال صعوده الركح ونزوله منه وحتى وهو باتجاه المركبة المعدة لتقله لبيته في ذاك الحي الراقي.. وعلى مقربة من المركبة التي تنتشر حولها آهات وأنات ودموع المعجبين السخيفين، وقف طفل مهلهل

الثياب في الثامنة من عمره، فأثار حرنكش الخروف، فابتسم، فأشار له ان يتقدم منه.. ففعل، اذ كانت هذه اللحظة التي ينتظرها الصبي الصغير ليعبر عما يجول في نفسه من تقييم لهذا الخروف!!.. لم تتغير تقاطيع وجهه ولم يتقافز ولم يشد شعره، وما مد يده.. وإنما استجمع ما يملأ فمه.. فقذف قشور الترمس في وجه حرنكش وولى مدبراً وهو يقهقه.

رام الله ٣/٢/١٩٩٨

حب في أربع لقطات

اللقطة الأولى

قد تكونوا سمعتم بالحب من أول نظرة، أو الحب من أول لفتة، أو الحب من أول ابتسامة أو الحب من أول ركلة رجل، أو الحب من أول شتيمة، ولكنني لا أظنكم سمعتم بالحب من أول هبة، هبة هواء.. وكي لا تعجبوا فان هذا ما حصل معي نعم معي!.. كانت موظفة جديدة، قدمت الى الشركة التي أعمل فيها، تتهادى برقة وتوزع الابتسامات كما يوزع ساعي البريد المراسيل أو الفرّاش كاسات الشاي على الموظفين.. مميزة، أعني ان ابتسامتها (كانت) مميزة.. ولكن الشباك اللعين في مكتبي جنى عليّ، وأوقعني فيما تفاديته أعواماً.. لقد أحببتها، هكذا ظننت حينها، لقد مرت من الشباك هبة هواء أطارت شعرها الأسود الفاحم الطويل ليكشف عن عنق طويل جميل.. ولم أكذّب خبراً، فلم يمر على وجودها في الشركة ثلاثة أسابيع حتى كانت تناديني باسمي مجرداً دون استاذ أو سيد.. وهكذا كان حبي لها من أول هبة هواء.

اللقطة الثانية

مشاحنات هو الاسم العلمي الصحيح للخلافات الزوجية المتكررة، لقد ظننت طويلاً ان المصطلح لا بد وان مخترعه

مهندس كهرباء أو (كهربائي) لأنني رأيت ولا بد ان المشاحنات مستمدة من الشحن، فالبطارية القابلة للشحن كلما فرغت أعيد شحنها وهكذا هو حال الخلافات الزوجية اذا نسيت ان اشتري لها دفتر هواتف تبرمت وقذفت في وجهي شتى تهم كراهيتها وعدم محبتها، واذا أرادت ان تمزح اختارت صلعتي الفضية أو شاربي الكث.. قزمتني، أهانتني، حطمت رجولتي الشرقية على عتبة صلعتي المستديرة اللامعة، أما عن مسلسل الطلبات فهو أطول من مسلسل (الحسان والشجعان) أو (ماريا مرسيدس) فاليوم تريد كرسياً هزازاً، وغداً صحناً لاقطاً والذي يليه لا تمل من البكاء للحصول على هاتف خلوي.. وكيف بي ان استجيب لما يُمليه عليها الجهاز الساحر يسلب عقول كل سكان المعمورة ويفتتها ويطحنها ويعجنها ليصنع منها قوالب واحدة دون روح ودون عقل أو ذكاء أو تفكير.

اللقطة الثالثة

قد يظن البعض ان النساء يهوين الزينة ويعبدن ظلال العيون وأحمر الشفاه وطلاء الأظافر وصبغة الشعر، ورغم ان زوجتي التي كنت أظن انني أحبها مولعة بالألوان الثمانية عشرة لصبغة الشعر الفرنسية حيث تارة تراها برأس منكوش ذي لون أحمر، وتارة ثانية بشعر يلمع اصفراراً أو اخضراراً كلون الطحالب الملوثة لمياه عمان الغربية وتارة أخرى بلون العلم اليوناني أي الأزرق.. ولا تتعجبوا، فلقد كدت اسقط على الأرض عندما فاجأتني مطوقة الجمجمة الفارغة التي ترتديها، بشعر بلون

أزرق سماوي يخجل حتى رواد الفكر البوهيمي أو أتباع (البانكس) و(السبايس غيرلز) على فعله.. ولكن هذا ما كان، أقول ان كل ذلك لا يشكل حقيقة الهواية التي توحد غالبية النساء والتي اعتقدها مكونة من حروف ثلاثة مضيئة مستمدة من العبارة التالية (نكسّر رؤوسكم بأقدامنا) حيث خطف حرف النون من الكلمة الأولى والكاف من الكلمة الثانية والدال من الكلمة الثالثة لتتشكل كلمة (نكد) الهواية المثلى لغالب النساء من خاويات الرؤوس.. وأهمية ذلك انهن وأظن زوجتي منهن بمقام الزعامة يستمتعن بسكب القرف في وجوه أزواجهن ويستلطفن اشاعة جو من التوتر والمشاحنة في أرجاء المساحات التي يشغلها أزواجهن.. وما كانت حبي من أول هبة الا سيدة النكد، تستمتع به ضدي وأنا جالس اتفرج على جهازها الساحر التلفزة، ولا تنس ان تصفعني بطلباتها ونكدها بالطبع بمجرد صحوي من النوم، أو عند رغبتي بالنوم مساء أو حتى أثناء القيلولة، حيث تدرك عزيز النوم في حر عمان المفاجئ فلا تترك واحدة من مثيلاتها من النساء الا وتتصل بهن ويتصلن بها محولات البيت الى (بدالة) تدق في حيطان رأسي.

هواية هي لغالب النساء ولكنها لزوجتي مهنة، تتقنها امتثالاً للقول الشريف بضرورة اتقان العمل.. بل وتعلمها وفقاً للحديث القائل بضرورة الحرص على التعلم والتعليم ولو في الصين.

اللقطة الرابعة

دخلت غرفة النوم، واذ بأمراة على السرير مضطجعة على

جنبها الأيمن وتغطي نصفها الأسفل بشرشف رقيق.. ما كدت أعرفها في عتمة الليل حتى أضأت اللون الأحمر.. انها امرأة صغيرة الرأس، قليلة الشعر.. من المفترض ان هذه الغرفة غرفة نومي! ومن يضطجع فيها لا بد ان تكون زوجتي في مثل هذه الوقت المتأخر من الليل الذي ولجت فيه الى البيت! ولكن المواصفات لا تنطبق على سيدتي، سيدة النكد، رقبة عارية وشعر قصير وملون بلون العلم الأمريكي هذه المرة، وصينية كنافة مُسِح نصف ما فيها ملقاة على الطاولة.. ما ان أضأت اللون الخافت حتى قفزت من السرير تبشرني بشرائها وتركيبها لصحن لاقط (ستالايت) على اقساط، واحتفالاً منها بهذه المناسبة السعيدة كما قالت نتفت شعر رأسها وصبغته بلون علم الفضيحة العالمي، العلم الأمريكي.. ولكم ان تتصوروني في هذا الموقف المرعب!!.

عمان في ١٩٩٨/٨/١٩

رسالة الى صديقي المتخاذل

كان يسري في دمي فلما فقدته كتبت له أقول: لقد فكرت طويلاً فيما قمت به من جانبك، من طرفك، أنت يا أخي نبيل، وذلك حينما تركت الوطن منسحباً الى الخارج، بعد صراع طويل للحصول على رقم وطني ثم الدخول والعمل في اطار السلطة.

ان الذي حصل منك -بشكل مجرد- هو أنك تركت موقعك، تركت عملك (وظيفياً) في فلسطين وانتقلت الى مكان آخر، الى مكان قصّي، كيف ولماذا حصل منك ذلك؟! حيرني طويلاً هذا السؤال وفكرت فيه كثيراً، لأتوصل الى نتيجة منطقية بسيطة هي انك بتركك عملك وظيفياً، تركت موقعك نضالياً، تركت ألم اللحظة المؤثر واخترت فساد المتعة الزائل، واخترت الحياة الصاخبة الثرية على الحياة النامية الطاغية.

كل شخص يستطيع ان يذكر أو يعدد أو يختلق عديد المبررات (للانتقال) من حالة الى حالة ومن موضع الى آخر، فهل يُلام من يستسهل العيش الرغيد ويمتنع عن تحمل المشاق، أو هل يُلام من عندما يُقدِم يعطي حتى الحد الأقصى وعندما يُحجم فانه لا يترك وراءه ولا طرف حبل.. ربما!! وهكذا في ظني كنت أنت!!.. لأسباب شخصية أم عائلية أم وظيفية أم أمنية أم نظامية أو بعضها أو كلها ربما كان قرارك بالتراجع والانهزام والتقهقر.

نعم لقد هُزمت في داخلك، في دائرة تأثيرك، في قدرتك على اختيار الاستجابة، وأنت من كان يعمل بمنطق التواصل مع الوطن.. وهُزمت عندما سقطت أو اسقطت بنفسك نظريتك تلك القائلة بضرورة التمسك بالوطن الذي طالما رددت مراراً انه جزء منك، تحبه وتحب فيه نابلس، وترى تميزه وجماله وعنفوانه وخيلاءه في تنوع جغرافيته وضيق مساحته وتعدد مناخاته، ولطف شعبه واصراره، وجمال طبيعته.. فكيف حصل منك ذلك؟! أي ان تحب وتبتعد، وتعشق وتتجنب، وتُغرم وتَفر ممن أحببت فرار الغزال من أمام قسورة؟!.

لا أعاتبك ولا ألومك، فلكل رأيه ولكل مواقفه ولكلٍّ استجاباته لما يرى ويسمع ويحس ويكمن في نفسه.. وبالتالي لكل خياراته، ولكن لا تبرير للهروب أو الانهزام حين صليل السيوف على ظهور العاديات ضبحا.

أنا ابن الوطن الساعي للامساك بيدك كي تدلني على الطريق.. تركتني وحيداً في صحراء البحث عن المصير.. ومثلك لا يعيش الا في وسط الأنواء والعواصف، تركتني وحيداً.. وأنت للاندماج في المجموع، والعمل ضمن فريق، وخدمة الجمهور كنت في كامل لياقتك.

لا تشيح بوجهك عني، أو لا تقابلني بأحاديث التنظير الحزبي أو الجعجعة الكلامية.. لأنك فشلت، نعم لقد فشلت.. ولم تستطع ان تمنع نفسك من اختيار التنعُّم في الغربة على حساب العذاب المرافق للبناء في أرض الوطن.. وأنت الثوري المناضل المقاتل -أو هكذا ظننتك- وحركت كرسيك من موقع

المجابهة اليومية بل وحطمته وانتقلت الى كرسي آخر ضخم،وثير، مرتفع الظهر في موقع المراقب.. موقع المتأمل المشنوق بفلوسه المدعي الحرص على الوطنية والأهل والبلد وهو يرغد بعيش هنيء رتيب مُمل يتمتع فيه بكامل مظاهر أو أدوات الرفاهية، ويرفع عصاه في وجه الوطن وأبناء الوطن وقيادة الوطن على – عجرها وبجرها– مهدداً متوعداً تارة ومتأففاً شاتماً تارة أو لوّاما موجّها تارة أخرى!.. أو ليس هكذا يفعل كل من (اختار) البعد عن الوطن؟!.

وأنت ممن اختار بمحض ارادته لمرتين ان يدير ظهره للموقع الفعال، ولارادة الجهاد، ولحاجة الآخرين له.. وتصفع بذلك كل من أحبوك ووضعوا فيك الثقة، وشعاع الأمل في الكويت ثم في أرض الوطن فلسطين.

فيك وبمثلك كانت بارقة الأمل تكبر، وربما كانت ستكبر أكثر فأكثر لتتحول الى مساحات دائرية متنامية تسقط على عدد يكبُر أكثر فأكثر من الناس الذين أعلمهم وتعلمهم في هذا الوطن المسروق الشريد الطريد.

هل تراني أعفي من المسؤولية مجموع الأمة، ومنها قليل من بقايا شعبنا المشتت – خارج اطار المخيمات خاصة– والتي تقف في الركن الخطأ؟! متعمدة القاء عجزها على هذا الوطن وقيادته، والتي على كثير كثير من سلبياتها بل وفساد البعض منها يكفيها ان اختارت التواصل والتفاعل والبناء والصراع من داخل البؤرة!.. أبداً، فلا سبب يدعو أولئك العجزة في انفسهم، أولئك الذين يكدسون ثرواتهم حول بطونهم أو فوق

بطونهم أو أسفل بطونهم لأن يظهروا عنتريتهم في ادعاءات التلوث لمجموع أهل الوطن أو من دخله منهم حديثاً.. امثالي، وأمثالك (سابقاً) دعهم هم ومحيط خصرهم لا يفكرون الا في نطاقه، لا ينفكون يعبثون، ومتى ما تحدثوا في (القضية) ففي ترف فكري، ورحم الله من أطلق هذه العبارة كم كان صادقاً وواضحاً وذا رؤية لم نتلمسها الا بعد فقدك؟!.

لا أظنك من أصحاب البطون المندلقة أولئك الذين لا ينطلق تفكيرهم الا من محيط هذه المنطقة -كما ذكرت- وما أظنك في سعيك للابتعاد والخروج الطوعي من دائرة الحدث قد سعيت لأن تكون منهم!! ولكنك اخترت التقهقر واخترت الانهزام واخترت الفرار، ولن تكون فيما بعد -حسبما أرى- من أولئك الكُرّار.

الناس ثلاثة كما يقول الامام العظيم علي بن أي طالب (عالم ربانّي ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا الى ركن وثيق) والناس في تفسيرنا الحديث لهدى الإمام العظيم: رجل معلم، قائد، مبادر، مؤثِر، مضيء، نوراني، رباني، أو آخر يسير متتبعاً أثر الأول ساعياً للاقتداء به، أو أمة من الرعاع لا علم ولا دين.. لم يلجأوا الى ركن وثيق، تنام لتقوم، تصحو لتأكل وتأكل لتُتخم، ويُشَدُّ على ظهرها سرج السعي المحموم وراء المال.. لا هدف لها ولا خيال ولا أمل أمامها ولا وعي تمتلك، ولا أمل أمامها، ولا تخطيط ولا متعة ترجوها ولا عمل الا في محيط ارضاء النزوات وتحقيق المتعة واطفاء نار الشهوات.. يأكلون ويشربون ويكتنزون

وينامون ويتناطحون ويتناكحون، ويبغونها عوجاً.. ومن بين هؤلاء كنت أظنك ذلك الرباني النوراني المشع دوماً، وفي أقلها فأنت من يسير على سبيل نجاة، ولكنك اخترت.. وكلٌّ عن خياراته واستجاباته وردود أفعاله مسؤول!!.

لقد رفضت ان تكبر على جروحك، ورفضت بخيارك ان تقهر ظروفك، وعجزت، وتقهقرت تحت ضغط أمور أنت عليها أول القادرين.. لماذا؟ لأن قوتك، وقوة كل منا في ظل ضغط الظروف العائلية والوظيفية والبيئية القاهرة هي في (الذات) في نفسك، والتي هي مجال تأثيرك وقدرتك الفاعلة والتي كان من الواجب ان تكون مجال اهتمامك.

ان في قلب ذلك الرجل، صديقي المتخاذل، النبيل، نفساً وذاتاً كنت أظنها عظيمة متألقة متلألئة مشعة بل ومشتعلة لا تخبو نارها ولا تنطفئ، فخبت وانطفأت وانكفأت واندلقت وسقطت، وتراجعت واستجمعت شتاتها لتقفز من ضوء النهار فتختار العتمة والظلام والغربة والبعد.

أين أنت؟! قف وفكر! كيف تغفو عيناك في هجير مناخ خليج فارس؟ أو تنام هانئاً؟ وكل لحظة كنت تسخرها لمساعدة فرد في مجتمعك الفلسطيني الباحث عن التموقع في أمة العالم الثالث كانت لحظة مقدسة مباركة، وفيها الأجر بعشرة أمثاله.. انها لحظة قد لا تكون اعطيتها حق قدرها، على عظمها وأهميتها واعجازها.. والآن فانك قد فقدتها وفقدت قدسيتها الى غير رجعة.

هل أجازف وأقول إنني بفقدك، فقدت الأخ العزيز والصديق

الصدوق، والرجل النبيل، والرأي المستنير، والعاطفة المتأججة، والفعل الخلاق، والأنس الجليل، والفكر المنير، وكتلة اللطافة المتحركة، والصراحة المتوثبة، والصرامة في موقعها، والسيف المغمد حين السلام، والسيف المشحوذ في مرحلة الانتظار والترقب، والسيف المسلول حين الوغى.

هل أجازف حينما أقول انك بكل تقهقرك وتراجعك وفشلك وانهزامك وفرارك وانطفاء شعلتك المتأججة واختيارك للاحجام واسقاطك لنظرياتك وانتقالك لموقع المراقب في الصفوف الخلفية.. ما زلت تترك فيّ -وفي غيري ربما- الأثر المنبثق عن تلك السمات المتعددة التي فُقدت بفقدك.

لا أظنني مجازفاً ولا أظنني مخطئاً، فما زلت وأنت في البعيد تصارع ذاتك، وتقاتل، وتتوثب، ولربما أنت تتأمل!! وتتحمل ما أنت فيه انتظاراً، أو هكذا آمل!؟.

هذه رسالتي اليك يا صديقي المتخاذل! عسى ان أكون فيها قد عبّرت، عبّرت عن ذاتي فيك، وعن ذاتك فيّ، وعن توحد الآخرين فينا، وفنائنا الأبدي في تراب الوطن.

رام الله-فلسطين ١٩٩٨/٩/٢٢

القبلة الأخيرة

(١)

كانت سيارة الأجرة المتجهة من الجسر الى العاصمة الاردنية عمان، تسير ببطء شديد أوهكذا ظننت ، حتى ان المسافه التي لا تتحمل أكثر من ساعه خُيّلَ لي انها جاوزت الساعات ... لقد جال في ذهني العديد من الصور والذكريات التي ارتبطت بالوالد الذي يرقد في المستشفى في غرفة العناية المكثفه .

لقد التقينا بعد عدد من الإتصالات الهاتفيه وذلك في مقر ما يسمى نظرياً (إستراحة اريحا) أنا وإخوتي الثلاثة القادمين من مدن مختلفة في فلسطين ، والتقينا بموعد لم يضرب وإنما جاء صدفة قبل انطلاق الحافلة من (الإستراحة) الى الجسر ،وكانت كلمة السر التي جمعتناعلى قلة ما نجتمع هي ان الوالد في خطر.

تتهادى السيارة ولما نصل بعد (مرج الحمام).. ولا استطيع دفعاً أو تحاشياً لمئات التداعيات المتصلة، فالبيت الذي ضمنا أو لنقل أحدى الشقق التي سكنّاها في ذاك البلد الخليجي لا تعرف الهدوء، واعتدنا أنا وإخواني على صخب اللحظات، وانتفاء هدوء الوقت.. فالبيت يومياً يعج بالحركة.. رجال يأتون وآخرون يذهبون، والوالد في استقبالهم دوماً يتعاطى الطقوس الوطنية معهم.. فلا تخرج من الذاكرة أبداً صور عشرات الرجال

الذين تنوء الشقة الصغيرة بحملهم وهم وبعد نقاش ساعة يقفون ليقسموا مرددين وراء الوالد قسم الاخلاص لفلسطين.. أو الذي عرفته بذلك بعدئذ.

الطريق التي ترتفع شيئاً فشيئاً لتقلنا من دفء (الغور) الى برودة الطقس الذي يلفه الضباب حول مدينة عمان الكبرى، تبدو أطول من المعتاد مع هدوء السياقة، والاضطرار للتباطؤ مع ضعف الرؤية المرتبطة بالضباب.. أصحو من ذكرياتي، تلك التي تهاجمني رغماً عني على صوت أحد إخوتي في السيارة يسأل -وكان الصمت قاطعاً لتواصلنا- عن المستشفى الذي ينزل فيها أبونا.. فقلت له ان لا علم لي؟ وأجزم ان زوجتي تعلم.. وبذا علينا التوجه لبيتي في عمان أولاً، ثم ننطلق الى المستشفى.

تهاجمني الذكريات ثانية.. لقد كانت فترات الغياب لوالدي عن بيتنا هي فترات استدعتها طبيعة عمله في (استقطاب) و(تعبئة) و(اعداد) الجماهير للمعركة، وللانخراط في العمل الفدائي.. فلا أكاد أعرفه أباً حانياً أو والداً ودوداً، أو رب بيت، فلقد عاش جل وقته ما بين دول المواجهة وذاك البلد الخليجي الذي شاءت الأقدار ان نقيم فيه لأكثر من خمسة وعشرين عاماً.. ولكنه عاش زمانه حتى في البيت بين رجال كبار، مجاهدين حقيقيين، مناضلين عظام، كان لهم بمثابة الوالد والقائد والأخ فلم يلتفت -لما يحمله من مسؤولية- للعناية بأولاده، فلم يستطع ان ينتشل من بحر العاطفة ما ينعش به أنفس أولاده، ولكنه كان قدوة ومثالاً وكان يحتذى في الفكر

وفي الجدل وفي التعبئة وفي التحريض وفي العلاقة مع الجماهير، فسقط أولاده في امتحان العاطفة، واعتنقوا العقل الذي اشقاهم وقد أكون أكثرهم ولكنه صنعهم.. قلت انه عاش في بيته، في الشقة، بين رجاله.. وفي مثل هذا الجو (الثوري) (النضالي) وفي مثل هذه البيئة الاسلامية، القومية، الوطنية كانت النشأة التي أثمرت في جميع ابنائه مناضلين في صفوف الثورة الفلسطينية.

تكاد السيارة تقترب من بيادر وادي السير حيث أقطن، والحت علي فكرة لم ترد على بالي من قبل، وهي ان أقبله قبل ان يموت لا سمح الله! وما ذاك بالوضع الطبيعي بكثير ولكنه في وضع التربية التي تربيتها كثير.. أقبّلهُ قبلة نعم!! لماذا.. لأنني لم أقبله أو يقبلني في حياتي أبداً، حتى مع اعتياد العرب على العناق عند السفر ذهاباً أو قدوماً لم أمارس هذا الطقس مع والدي منذ خرجت شبلاً بناء على ترتيب الوالد للتدريب العسكري في معسكرات الأشبال في سوريا الى أن كنت اتنقل بين عدد من دول العالم ضمن طبيعة عملي في ذاك البلد الخليجي.

نعم.. لقد الحّت علي هذه الفكرة، يجب ألا أموت أو يموت هو، والأعمار بيد الله، دون ان أقبله ولو مرة واحدة في حياتي أو حياته.

رام الله ١٥/١٢/١٩٩٧

(٣)

في العام ١٩٨١ واستجابة لنداء (التعبئة العامة) التي اعلنتها الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين توجهت مع مجموعة من الطلبة الفلسطينيين الدارسين في جامعة الكويت، الى بيروت وكان ما كان من أمر معايشتنا للوضع الفدائي الفلسطيني هناك في مواجهة العدوان وبعد انقضاء المدة المقررة كان أمين سر حركة «فتح» بالكويت يعد العدة لاستقبال هذا الفوج من الطلبة الذين عادوا من لبنان ودون ان ندري كان على أرض المطار جمع غفير ضم الى جانب المسؤولين وزملائنا من طلبة الجامعة، أولياء الأمور.

كان بينهم كالطود الشامخ، بقامته المعتدلة، وعينيه الواسعتين ذات النظرات الثاقبة، لمحته من بعيد، لا يحب الزحمة ولا يحب التزاحم، وفي خضم الاحتضان والعناق والتقبيل الذي قوبلنا به من جميع المستقبلين، وقف هو وكأن الموقف لا يعنيه وان كنت أعلم الآن ان شعوره الداخلي كان مزيجاً من الاطمئنان النفسي والشعور بالفرح والفخر الا انه لم يُبدِ ولو بكلمة أي تعبير عن ذلك، وأيضاً لم يكن بيننا الا عناق المصافحة بالأيدي، وظل هذا المشهد مثار طرفة واستغراب بين جميع الأصدقاء والزملاء وظل في ذهني مستقراً لا يغيب عني حتى وصلت اليه بعد ستة عشر عاماً وتحدوني الرغبة في احتضانه وتقبيله.

دخلت عليه وهو جالس على سرير المرض في مستشفى الجيش الفلسطيني في جبل الحسين في عمان، لقد كان وضاءاً مبتسماً، صوته اللذيذ طرق مسمعي قبل دخولي الغرفة وعرفته عفياً.

سلمت عليه ولأول مرة في حياتي على ما أذكر مارست ما لم استطع ان افعل، إما خجلاً، وإما وجلاً، وإما امتثالاً لتربية شديدة، صلبة، انشأني عليها، لقد مارست (الفَعلة) التي يهينها الكثير بمقدار ما يمارسونها بكثرة في الذَهاب والاياب، حين الرغبة في المتعة، وحين الرغبة في التعبير عن الحب أو التقدير أو الثناء أو الترحيب، وحتى حين التزلف والنفاق.. نعم لقد قبلته، ولأول مرة في حياتي قبلته في جبينه.

لقد كان شديد الصعوبة على ان اقبله، ولكن الكم الهائل من التحاّث الداخلي الذي استجمعته في المسافة الفاصلة بين رام الله وعمان، وبين الحياة والموت، وبين الرغبة في التعبير عن المحبة والعرفان وبشكل لم يسبق له ان فعلته كان دافعي الكبير للقيام بمثل هذه (الفِعلة) التي لم استطع تكرارها بعد ذلك رغم ان مرضه استمر بعد هذه الواقعة ما يزيد على الشهور الستة.

رام الله ١/ ١٠/ ١٩٩٨

تمثال بين البليد والكعسم

أكاد اقسم اني رأيت الشيطان في وجهها، رأيت ابليس في محيّاها، رأيتها كذلك وكانت تجلس في صدر الصالة فوق كرسي وثير مرفوع وموضوع على طاولة كبيرة، أو ركح لصغره أشبه بالطاولة، وعدد من أعوان ابليس من النسوة الكاسيات العاريات، فارغات الرؤوس، يتمايلن ذات اليمين وذات الشمال، وكأنهن حمولة غير مثبتة في صندوق شاحنة نقل مسرعة في طريق متعرج، في تمايلهن تثاقل، تباطؤ، وفي ثنيهن إعوجاج و(لكاعة) أم (سقاعة) أم (شناعة) أم (وضاعة) أم كل ذلك معاً.. ربما!! وفي نفس المساحة عدد من الرجال يتقافزون كلٌ وفق لحن يملأ أذنيه هو فقط، ولم تعزفه الفرقة الموسيقية والتي تؤدي مقطوعة السلام الوطني الألماني.. نعم الألماني دون أن تدري!.

المهم أنني ما ان نظرت في اتجاهها تجلس على الكرسي المرفوع على الطاولة في مقدمة الصالة، وبجوارها ذلك الشقي صديقي الهادئ دوماً، يقعد على كرسي آخر، الا وأحسست - وفي ظل هذا الجو المليئ بالدخان والروائح المتباينة، والأصوات الصاخبة الصادحة، والكتل البشرية المتملقة المتدافعة- بأن كل الصالة تعج بالعفاريت وهي فيهم بمقام كبيرهم الذي علمهم السحر!!

قد أشعر الآن بغرابة مشاعري آنذاك، ولكنه لعمري هذا ما انتابني وقتها من إحساس ولعشرين عاماً حتى الآن لم أجد له تفسيراً واضحاً!! هل طبيعة الجو الذي دخلته رسّخ في ذهني مثل ذلك الايحاء؟! أم ان الكم الهائل من تلطيخات الوجوه وخاصة وجه العروس كان السبب؟! أم ان الحجم كان السبب؟! في حجم عينيها الفسيحتين، وفي حجم انفها الذي يبدو بقوة سيارة ٨ اسطوانات، وفي حجم شعرها الكبير، وفي حجم شفتيها الزنجيتين، وفي حجم الألوان الملطخ بها وجه العروس لم تترك منه بقعة واحدة الا وصبغته بلون مغاير للون الطبيعي؟! أم ان مزاجي الشخصي المتكدر آنذاك كان السبب في مثل هذا التصور، وهذا التوصيف لتلك المرأة، فكثيراً ما يعبر الانسان عن مزاجه الشخصي أو وضعه الذاتي في الآخرين.

كانت الدعوة موجهة لي من صديق، وزميل في كلية التجارة في الجامعة الاردنية، وهو ذلك الشقي الجالس الى جوار عروسه أو شيطانه ولا يدري ما ينتظره؟! في ليلة الزفاف هذه التي انطلقت لحضورها، رغم أنفي، إذ ان اصرار والدة صديقي وهي كالأم مني جعلني مرغماً على حضور زفافه، رغم تجنبي الدائم لحضور مثل هذه المناسبات الصاخبة، اذن حضرت الحفل وكان ما كان من اثارة تلك العروس بنت الشيطان لي بثوبها الأبيض وألوان وجهها وحجوم مكونات خريطة وجهها وإيضاً خفتها واستهتارها، اذ كان فمها لا يتوقف عن الأكل من جهة، ولا عن الضحك من جهة أخرى، ولأول مرة وربما آخر مرة في حياتي أرى عروساً على عرشها تأكل وتضحك معاً دون انقطاع الا

للرقص أحياناً، وذلك لفترة قياسية زادت على ست ساعات متواصلة!!.

لقد كان فمها عندما يفتح أكبر حجماً من مغارة جعيتا الشهيرة في لبنان! وأوداجها المنتفخة بالأكل أكبر من جبل أبو غنيم المهدد بالمصادرة من الاحتلال اليهودي، وفتحتا منخريها أوسع من بوابات دير القرنطل الشهير في مدينة أريحا، ان الحجم الكبير هو كل ما ميّز تضاريس خريطة وجهها رغم احتفاظها بحجم لا بأس به ما دون ذلك!.

لقد كان زميلي الشقي يجلس بجانبها، وكأنه تلميذ مؤدب في مدرسة ابتدائية، هادئ لا يتكلم، ولا يضحك أو حتى يبتسم، مشبكاً يديه على قدميه تارة، أو ممداً لها على فخذيه تارة أخرى، وهو غير عليم بما يدبر له القدر، لقد استمرت تلك الشيطانة ذات الحجوم المضاعفة في تفاصيل جمجمتها ولأكثر من ستة ساعات في الأكل والضحك والرقص مع أبيها وأخيها واختها وخالتها وزوج خالتها وامها وعمتها وزوج عمتها وبنات وأولاد عمومتها وخؤولتها وجيرانها وجيران جيرانها وجيرانهم حتى الجار السابع، ولم تتذكر انها مقبلة على الزواج من ذلك القاتل بهدوئه، هكذا فسر بعضنا الوضع الى ان وقعت الواقعة واشتبكت في نهاية الحفل مع أخت العريس التي أشارت لها بأنها يجب الا تكون بهذه الخفة وهذه الاستهانة والاستهتار لعريسها فانزعجت من اسميناها بالشيطانة أو بنت الشيطان! ومن حسن حظكم انكم ما رأيتموها وهي منزعجة، لقد تحولت من إمرأة أكول ضحوك رقوص الى قطار مدمر وفيل مزمجر

وقط متنمر، وثور هائج ينفث الحمم من منخريه، وبقايا الطعام من فيه في كافة الاتجاهات، وبعينين ازدادتا حجماً واحمراراً وتوهجاً وكأنهما التهبتا فجأة، وقامت بنت الشيطان تلك بالاطباق على عنق أخت العريس بسرعة حركة (فاندام) في مطاردته للأشرار في بلاد العم سام، ويا لطيف الطف تحولت الصالة الى حلبة مصارعة، وكأن ما فعلته كان الشرارة التي أحرقت بانطلاقتها أكوام القش اليابس.

التقيته، يتمشى وزوجته وأربعة أطفال في شارع الحسين، وبعد انقطاع دام لعشرين عاماً بسبب الأسفار والتنقلات وطبيعة العمل، التقيته وهو يضع على أنفه نظارات سوداء لأول مرة، وبدا عليه الكبر، والشيب والتعب، ما عرفته في البداية، ولكن شيئاً ما أعادني للربط بينه وبين تلك الشيطانة، ربما طريقة نظرته، أو انفعالاته المتثاقلة المحدودة، أو حركات يديه البسيطة، أو هدوئه وصبره وطول باله الى حد البلادة، وقفت، وقابلته، وجهاً لوجه، فعرفته وعرفني، وسلمنا على بعضنا البعض، وان بكسل وهدوء شديدين كانا من مميزات شخصيته، وعرفني على زوجه.. وكدت أضحك من مرآه الذي ذكرني بتلك الليلة البائسة، الا انني تمالكت نفسي، وسألته عن العمل والصحة والأولاد، الأسئلة المعتادة في مثل هذه الظروف، ثم سألته عن والدته التي كانت لي كالأم فاخبرني انها توفيت منذ عشر سنوات فعزيته، وان كان ذلك بالطبع متأخراً! ولما تنبهت أننا نقف في الشارع وأطلنا، دعوته وعائلته لزيارتي في البيت فوعد.

لقد كان لهذا اللقاء، ان أثار فيّ الأسئلة والاستفسارات

التي لم تجد أجوبة شافية، تلك التي ترافقت مع ما حصل في ليلة زفافه الذي لم يتم مع من اسميناها بنت الشيطان!؟ أقصد أنا وأصدقائي، والتي حاولت معهم الاجابة عليها، فكان كل جواب يشكل احتمالاً في اتجاه، عدت ثانية لمفكرة الهواتف خاصتي والتي غدت حالياً عبارة عن حاسوب جيب، واتصلت بأكثر زملاء الدراسة المقربين من العريس الموكوس، وكان هذا الزميل من المعروفين بملاحقة الحوادث والقصص الاجتماعية، وكان مرحاً فرحاً وكثير الكلام أيضاً، وكنا نطلق عليه في الكلية اسم الكعسم وهو الحمار الوحشي في اللغة العربية لأنه كان لا يلبس الا قمصاناً بمربعات أو دوائر أو مثلثات أو خطوط كبيرة.

رغم الغياب والافتراق القسري لطبيعة أعمال كل منا الا ان استجابته لمكالمتي كانت كبيرة وكأنني لم أتركه الا بالأمس، وهذه من مميزات بعض الأشخاص، فهم ودودون، محبّون للآخرين، مرحون، وان كانوا من الذين ما ان تجلس معهم حتى تتحول دون ارادتك الى تمثال لا تستطيع ان تتكلم، وتجد نفسك اما مجبراً واما راغباً في الانصات للسيل المتواصل من الكلمات المقذوفة بتدافع وتزاحم وتصارع بحسب مادة الحديث، لأنهم وبشخوصهم المرحة الفرحة الانبساطية حتى الملل أحياناً، يجذبون.. وهذا ما كان من اللقاء الذي رتبناه معاً أنا والكعسم في مقهى (السنترال) بوسط عمان البلد، لأكثر من ثلاث ساعات لم يطبق شفتيه ولم يهدأ لسانه، ولم يدخل في جوفه سائل الا بالحاح متواصل مني ليشرب فنجان قهوته الذي بدلناه مرتين.. تحدث فلم يترك شيئاً وفتح ملفات وملفات وملفات

وأجّل مما فتح من ملفات أكثر مما تحدث فيه، وكنت آمل إن يفتح من ملفات ذاكرته الملف الذي أريد وما حصل! فاضطررت ان استوقفه بصعوبة متسائلاً عن أسباب ما حصل فيما اطلقنا عليه ليلة زفاف بنت الشيطان، فذكرني أولاً بسبب تسميتها ببنت الشيطان، وأنني من أطلق عليها ذلك لمنظرها الذي كان الحجم الكبير المنّفر فيه سيد الموقف وخاصة في وجهها، ثم استرسل في شرح مسببات الموضوع موضحاً كيف تعرف صاحبنا على عروسه وصولاً لليلة الزفاف، ووصل للاجابة عن سؤالي، وما كاد يفعل، الا والمقهى على وشك الاغلاق فقال لا فض فوه: ان المشكلة لم تكن وليدة الحفلة وانما كانت لجذور تتعلق بشخصية الطرفين، فالعروس كانت امرأة ضجيج لا تعيش الا مع الصخب، وهي امرأة ضحوك أكول مرقاص، وهو ما لا نختلف فيه، وأما زميلنا فلقد كان هادئاً صبوراً بطيئاً الى حد قد يتهمه فيه البعض بالبلادة، ان دخل الحمام لا يخرج من ساعة، وان جلس للأكل قضى ساعة أخرى، وان جلس لا يقوم وان قام لا يقعد، وان قعد لا يجلس، وان جلس لم يقم لينام، وان نام قد ينام في مقعده، وخلاصة القول انه بطيئ متثاقل هادئ صبور كما تعرف وأعرف، وقبل ليلة الزفاف بليلة ذهب صاحبنا الى محل الحلاقة والرجال في بيته ينتظرونه فلم يعد لهم الا عند منتصف الليل، لقد كان جالساً يتسامر مع صاحب المحل (الصالون) ولم يقم لكسله ليعود للبيت الى ان جاءه أحد أخوانه بعد أن استنفد كل الأماكن المتوقع وجوده فيها، وانتشله من غفلته المعتادة عند الحلاق هذه المرة.. وكان أهل عروسه

بانتظاره على العشاء فكادت خطيبته تتفجر غيظاً، الى ان كرر نفس الموقف وقت ذهابه لحفل زفافه والذي لولا لطف الله وفطنة أخوته الذين عرجوا عليه واقتادوه للحفل لظل ينتظر حافلة المؤسسة حتى الساعة.

وفي القاعة وعلى كرسيه قعد، وتعلم انه اذا قعد لا يرغب ان يقوم أو يتحرك الا بصعوبة، وهو ما حصل عندما أخذ الناس يتجاذبون العروسين للرقص، فلم يتحرك وتثاقل وتباطأ.. فشبكت عروسه يدها مع كل من هب ودب الى ان رقصت مع أحد الأغراب عن العائلتين، ولسوء حظ صاحبنا، على أنغام الموسيقى الهادئة (Slow) وللحظات معدودة لم يتحرك فيها صديقنا اللوح المسمر، فتحركت اخته ووقعت الواقعة، فقاطعته هنا موضحاً ان المقهى قد أغلق، لا سيما وان عمال المقهى كانوا قد وضعوا جميع الكراسي مقلوبة فوق الطاولات وبدأوا يشطفون الأرضية ولا بد من خروجنا حالاً!

اكتفيت من حكاياته، واكتفيت من موضوع سؤالي بما قال وان كان سيستزيد من الشرح.. الا أنني شكرته وتعللت بتأخر الوقت، وهو كذلك، على ان نلتقي ثانية، وودعته وما كدت أفعل، عند الباب الخارجي للمقهى مع اصرار في قرارة نفسي على عدم اللقاء به ثانية الا انه ولطلبه رقم هاتفي اضطررت ان أعطيه اياه مع قلب الرقمين الأخيرين فيه علّه لا يتمكن بذلك من الاتصال بي وجعلني أعاني ثانية بين البليد والكعسم، بعد ان كنت قد قضيت على هذه المعاناة منذ عشرين عاماً.

عمان ٢٠/ ١٠/ ١٩٩٨

ومزقت الحجاب الأخير!

على أرض مطار الملكة علياء الدولي في محيط مدينة عمان، حطت بنا الطائرة التونسية في الواحدة والربع ظهر يوم الأربعاء، وكان هبوط الطائرة التي اجتازت زمن الساعات الأربع الا ربعاً التي تفصل تونس عن الاردن بثلاث ساعات وربع تقريباً، مدعاة للتفاؤل لمثلي من لابسي التمائم والحُجب، ولأن العلم ليس له علاقة بمثل هذه الأشياء، فلا تعجب من رؤية عالم في الفيزياء أو في المسالك البولية أو في الحشرات يؤمن بالرُقية والتميمة والحجاب، ان أسباب الأرق والاحباط والتوتر والقلق على تنوعها وتكالبها وتكاثرها وبالتالي صعوبة تحديد مصدرها أو التحكم في منابعها تُلجئ أمثالي وأولئك المفكرين أو المثقفين أو الأدباء أو العلماء (للتشعبط) في حبال الحُجب و(التعربش) في خيوط التمائم، فلا ينفكون يستخدمونها في جُل المواقف، وحَل العقد، ولي في مواقف اللقاء مع رموز السلطة في أماكن الاحتكاك الجبري بهم على الحواجز الشُرطية، أو في مواقع المعاملات الرسمية الرتيبة المملة، أو عبر منافذ البلد البرية أو البحرية لي في مثل هذه المواقف ما يجعل من لبس الحجاب فرضاً، والتفاؤل منكراً.

وبما ان الطائرة التونسية حطت بنا في مطار، والمطار منفذ، والمنفذ يحرسه رجال أمن، فلا بد من (مقابلة) ولا بد من

حجاب!؟ المهم ان نصف الساعة الاضافية من وقت الرحلة لم تُحسب لصالحي، لأنني انتظرت -وكما هي العادة- بعد التدقيق في جواز سفري، والنظر المتكرر الى وجهي وسؤالي عن العنوان والهاتف رغم انهما مدونان في بطاقة الوصول!! ثم السؤال عن عملي رغم انه ايضاً مدون في بطاقة الوصول وجواز السفر!! انتظرت لأكثر من نصف ساعة في المنطقة الفاصلة بين طاولة أمن المطار والدرج الكهربائي الفاصل بينها وبين مخرج النجاة أي الهواء الطلق.

كثيراً ما أرقتني هذه الأوقات الضائعة انتظاراً دون طائل، نصف ساعة أو ساعة وأحياناً ساعتين، وكثيراً ما جعلني التفكير فيها متوتراً وعصبياً قبل أيام من رحلتي خارجاً من عمان وعائداً اليها، مما جعلني من رواد العرافين والعرافات، وقارئي الكف والفنجان، فنجان القهوة وكوب الشاي معاً!! والمشعوذين من محضري الأرواح، ومستضيفي الجن.. ورغم قناعتي بعُقم محاولاتي هذه الا ان عشرات المرات التي أوقفني فيها رجال الأمن جعلت من ترددي على مثل هؤلاء المشعوذين أمراً متصلاً.

في مقابلاتي المتكررة وهي التحقيقات التي يسميها رجال الأمن حالياً وتلطفاً (مقابلة) أو لقاء لم أبق شيئاً يتعلق بشخصي المتواضع الا وبُحت به، كنت رئيساً لاتحاد الطلبة، وأحد قيادات جبهة البطاطا والبامية في ساحة الخليج، ولا تستغربوا هذا الاسم فلقد كان قائد ساحتنا من محبي أكل صواني البطاطا والبامية، وحالياً عضو المجلس الوطني الفلسطيني عن (كوتة) الجبهة، وأعمل مسؤولاً في دائرة البحوث والدراسات في مؤسسة

فلسطينية غير حكومية بالوطن، ولا أتقن سوى (الحمل)، حمل القلم، حمل القلق، حمل التوتر، حمل الضمير، حمل الورق، حمل التسعين كيلو الممثلة لوزني، وحمل آلام الآخرين وأحلامهم.. ولربما، ربما لظروف لا دخل لي بها لم أكن من قيادات العمل الثوري الفلسطيني، ولا من قيادات الانتفاضة أو العمل العسكري، أو لأن شخصيتي تمحورت على العمل المرتبط بالورق لسهولته وليُسر التعامل مع الكلمات المقذوفة من الفم عن الرصاصات المقذوفة من فوهة البندقية.. أو لمتعتي في رؤية اللون الأزرق ينساب على الورق الأبيض، يحطم فيه النقاء، ويقضي فيه على الاتساع والرحابة، ويحقق عمق الحياة متمثلاً في تحقيق انفعالات اللحظة، ورسم تجليات الآن في محطات المستقبل وحافظات الأفكار.

أثناء التحقيق.. عفواً (المقابلة) مع رجال الأمن، وفي المرة الأخيرة، أبديتُ تبرماً من هذه (المقابلات) المتكررة!!.. فأجابني رجل الأمن الجالس على المكتب أمامي: ان ما يجعلنا نرغب في رؤيتك دوماً هو (الشوق)!! فعممنا اسمك على المنافذ دخولاً وخروجاً، وكلما هزنا الشوق اليك لا نُحرم منك!؟ صَمَتٌّ، سكتُ ثم وقفت بعد ان أُذن لي بالخروج.. واجماً، واجفاً، متوتراً خرجت، ثم نزعت الحجاب المربوط حول عنقي وأسكنته جيبي.. لأنتظر أثناء العودة من تونس الفترة المقررة في محيط نصف الساعة الموعودة، ليعود رجل الأمن، ويقطع عليّ تأملاتي وسكوني ومراقبتي لحركة المسافرين طالباً مني ان أراجع (الدائرة)!؟ فقلت له (مش غلط)، ومزقت الحجاب الأخير ساكن جيبي الأيمن.

عمان ٢٦/١١/١٩٩٨

البديع في مواجهة صمت محمد !

اجتمع في داره عدد من أركان الحزب الموصوف (بالإسلامي) على وجبة عشاء دسمة ملأت الأثلاث الثلاثة في بطونهم ، وجلسوا بعد الوجبة يتدارسون وضع شعارات حملتهم ضد القوائم المنافسة ... رحب أبو مصعب البديع صاحب الدار ورئيس القائمة الناعورية الإسلامية بالحضور ، وعذر الغائبين معدداً الموانع والأسباب وكأنه فرح من قلة الملبين لدعوة العشاء والإجتماع

قال أبو مصعب : إن إجتماعنا الليلة محدد لإختيار شعارات إسلامية للحملة الإنتخابية لكتلتنا ضد القوائم المنافسة في الجامعة من الكفرة والفسقة واتباع السلطة والمنافقين، ثم تحديد أسس الخطاب الذي سألقيه غداً في الجماهير الطلابية الغفيرة، قال محمد: يجب ان تخضع الشعارات والصياغات لضوابط بحيث لا تكون خيالية أو مخادعة أو ايهامية أو تنزع عن الآخرين ما ليس فيهم أو تسبغ علينا ما ليس فينا، أو ان نطعن بالآخرين دون وجه حق، ونقدس ذاتنا وتنظيمنا وزعاماتنا و.. ولم يدعه أبو مصعب يتم كلامه وأسكته عابساً في وجهه ورافضاً كلامه وايحاءاته وأيد الحضور ممن اتخموا عشاءً رأي أبو مصعب فكمن محمد وصمت.

صاح أحدهم ان الشعار الأهم لنا هو القائل (ان بانتخابكم

للقائمة الناعورية الاسلامية تخدمون الاسلام العظيم) فاستحسن الحضور الشعار.. وأضاف الثاني طارحاً شعاراً يقول: «ان القائمة الناعورية الاسلامية طريقنا لتحرير فلسطين» وقال الثالث: «ليكن شعارنا اقذفوا الآخرين بالحجارة وانتخبونا»، وتعالت الأصوات وتداخلت الاقتراحات ومحمد صامت وأبو مصعب كما الآخرين كلٌ يصرخ محاولاً تثبيت رأيه.. الى ان استقروا بعد ساعات طوال على الشعارين الأولين، وكان الوقت قد تأخر فأوكلوا مهمة كتابة الخطاب لأبو مصعب.

انزعج محمد من احتكار الكتلة لمفهوم الاسلام في ذاتها فقط، ولم يستسغ ان يقصر فهمه على كتلته لا سيما ان الانسان والجماعات في الاسلام وسائل وأدوات حشد، وليست غايات وأهداف.. فخرج من الاجتماع آسفاً صامتاً.

كان قد شذب لحيته ودعك وجهه بعدد من كريمات البشرة، ووضع على تسريحة شعره الصمغ (جل الشعر)، ولبس بدلته الأثيرة التي يحتفظ بها للمناسبات الكبيرة والمشهورة، وشنق نفسه بربطة عنق تدلت حتى أسفل بطنه البارز أمامه.

مشى يتهادى كما البطة للتو خرجت من الماء، تختال بين صغارها، خطوات قصيرة متتابعة تتوافق مع قصر قامته وطول لحيته المخضبة بالحناء، نظراته على مواضع قدميه ويحرك يده اليسرى الممدودة، بينما يحمل ملفاً يتضمن أوراقاً عدة في يده اليمنى، وما كاد يصل المنصة حتى انطلق الاتباع في صوت واحد (الله أكبر، الله أكبر...) وذلك استجابة لصيحة أحد مرافقي أبو مصعب البديع رئيس الكتلة الاسلامية الناعورية

في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، حيث كانت كلمة (تكبير) الاشارة الرمزية لهم لذكر الله بتواصل وتناغم.

وقف أبو مصعب، منتفخ الأوداج، ممتلئ رهبة ظهرت في حبات العرق التي بدأت تتجمع على جبينه وتضغط على عينيه، وضع الملف على منصة الخطابة المنصوبة أمام جمع صغير من طلبة الجامعة.. رجلاه لا تكادان تحملانه، وقلبه يكاد من صدره يقفز، حك لحيته، رفع رأسه ليجد نفسه في مواجهة عشرات من الطلبة.. الى يساره نظر ثم رمق الواقفين الى يمينه، لقد كان يحف به عدد من الاتباع المقربين من الكتلة الاسلامية الناعورية، يضعون أيديهم وراء ظهورهم ويباعدون بين أقدامهم في وقفة (استعداد) وتأهب، ويبتسمون.. ولا أحد يعرف لماذا ولمن، ولكنهم يلقون بابتساماتهم غير المحددة في وجه الجمهور الصغير، أسنانهم بارزة، وأفواههم مفتوحة على اتساعها، حتى لتكاد شفاههم تتمزق من الشد، وكأن زوايا أفواههم خيطت بآذانهم فاحتفظوا بها (مشلوقة) أو كأن مبضع الجراح قد عمل بها فيما يسمى الجراحة البلاستيكية.

وضع أبو مصعب يديه على المنصة، هكذا قالوا له: يجب ان تضع كفيك على طرفي المنصة وتشد عليها الى الأسفل كلما لامستها كفاك وتكلمت!.. وضع يديه على المنصة، ثم رفع يسراه ليحك بها أنفه، رفع رأسه المذبوح على صدره، ونظر ثانية الى الجمهور ثم تنحنح.. نظر الى الجمهور للمرة الثالثة دون ان يرى فيه الا ردة الفعل اللاحقة لها.. هي، والتي يعتقد انها ستقول له لقد كنت عظيماً لقد كنت رائعاً يا سمير وهو

اسمه الأول الذي لا يخاطبه به الا هي.

تململ الجمهور من طول وقفة أبو مصعب دون كلام.. لكزه أحد المرافقين على ميمنته، ونبهه ان ينطق والا خسرنا الانتخابات، ضغط على اسنانه ثم بسمل وحوقل وصرخ.. نعم بدأ بالصراخ منذ البداية، رغم قلة الجمهور ووجود لاقط الصوت (المكيروفون) حتى صرخت السماعات فأحدثت أزيزاً مزعجاً، ليتقدم أحد مرافقية من الميسره فيبعد لاقط الصوت وينبهه لأن يخفض صوته..

نظر الى الورق الموضوع في الملف أمامه.. وعدل من وقفته وواصل الكلام.. يصرخ في موقع الهدوء، ويتواصل في موقع الوقف، ويتوقف حيث الكراهة.. لا يكمل جملة الا الحقها بآية قرآنية أو حديث شريف بغض النظر عن الصلة بالموضوع فالتأويل والتطويع سمة لازمة.. كلمات فخمة ضخمة من تلك التي تملأ الفم عند النطق بها ولا تعطي مدلولاً غالباً!! في خطبته تقعر وغرابة، فيها تنطع وفيها شذوذ، ذات طنين أو ذات رنين.

(تشردق) أبو مصعب فتراكض الفتية من حوله وجلبوا عدداً من زجاجات الماء، شرب ثم واصل وأطال حتى كلَّ الجمهور وتناقص.. لاعناً فلاناً وشاتماً الجهة العلانية، وملصقاً كل ما ندر وشذ في القوائم المنافسة فهم شيوعيون، وهم وطنيون زنادقة، وهم اتباع السلطة، وهم فجرة، وبناتهم ما أسهل الطعن بهن.. الخصوم فجرة فهم من معذبي علماء الأمة (أي أبو مصعب ورهطه) وبعيدون عن الاسلام، فهم دون سواهم ظل الخالق على وجه البسيطة وهم دون سواهم رهط القداسة والايمان، وما يقولونه

منزه، لأن الطعن به طعن في القرآن الكريم.

كان أبو مصعب البديع قد شكل مع عدد من زملائه الطلبة الكتلة الاسلامية الناعورية، وقضوا أياماً وساعات طويلة في اختيار الاسم حتى استدلوا على هذا الاسم، فهم كتلة طلابية ناعورية ولا بد من الحاق الاسم بكلمة اسلامية، وذلك على وزن (البنك الاسلامي، الشركة الاسلامية، الهامبرغر الاسلامية، المرتديلا الاسلامية، البطاطا الاسلامية،.... الخ) لأن من شأن ذلك في الثقافة الشعبية ان يكفل جذب العامة التي مكمن تنبهها مرتبط بالاسلام، حيث تصفح وتسامح لبساطتها وتدينها كل (اسلامي).. أو هكذا ظن أبو مصعب وزملاؤه.

اذن هي كتلة اسلامية ولكنها ناعورية، وقد يظن البعض انها كذلك أي ناعورية نسبة الى ناعور مكان ميلاد أبو مصعب ولكن كلا!.. وانما نسبة الى الناعورة والنواعير وهي الآلة التي تستخدم في نقل الماء والتي تشتهر بها مدينة حماة السورية، وأصبحت هذه الآلة الدائرية الشكل شعارهم.

نظر أبو مصعب بعيون زائغة الى الأفراد القلائل الذين تبقوا من الجمهور ولم يرهم، فما زالت هي من يعشش في مخيلته ويترقب منها الجائزة، ويتمنى الفوز والنصر بنظرة من عينيها الناعستين، ضغط على المنصة أمامه وصرخ فهو طوال الخطبة لم يكف.. ولما أدرك ان لا أحد من الجمهور الحقيقي بقي صامداً يستمع له.. اختتم ويا ليته ما بدأ.. هكذا همس أحد اتباعه في الميمنة لزميله في الميسرة.. ودعا أبو مصعب فقال:

اللهم أودعناك سرنا فاحفظنا، ولا توقظهم وانقذنا
اللهم لك المُلك ولنا الفُلك فنجنا لطريق الأمان
اللهم قنا شر الخصوم، واجعل بيننا وبينهم (محسوم)
اللهم نجنا من المهالك ، وكسبنا في الجامعة المعارك
اللهم انصرنا على القوم الكافرين
اللهم اطرح فينا البركة كما طرحتها في صحابة نبيك وتابعيهم
اللهم ما نحن بالعصاة بل هم فباركنا ولا تعف عنهم
اللهم انصرنا على القوائم المنافسة واخذلهم
اللهم نجحنا في الانتخابات ودمر بيوتهم
اللهم نحن فقط عبيدك وهم كفارك، فاخترنا بالفوز، وانتقم منهم.

صفق المرافقون على الميمنة والميسرة، وأفواههم ما زالت مفتوحة تظهر ابتسامات غير ذات كُنه.. ولملم أبو مصعب أوراقه وحمل ملفه وأدار ظهره للمنصة، وقد ابتلت لحيته وقميصه..

العشرون الذين بقوا صامدين يستمعون لخطبة أبو مصعب الطويلة المملة، وينظرون لحركات يديه المبالغ فيها، واهتزازات جسمه.. كان لهم أسبابهم فالعشرة الأولى هم من مرافقي وأتباع وزملاء أبو مصعب الذين تناولوا على مائدته مساء اليوم الفائت وجبة عشاء دسمة وهم من وقفوا على ميمنته وميسرته حول منصة الخطابة.. والطالبات الخمس من اقربائهم.. والخمسة الأخيرة ما عدا محمداً من الطلبة الفضوليين الذين لم يجدوا ما يشغلهم فوقفوا يتهامسون.

كان محمد باعتباره من قيادة القائمة أو الكتلة الناعورية الاسلامية يقف صامتاً متأملاً كعادته، وما ان انتهى أبو مصعب

البديع من القاء قنابله الكلامية.. حتى عزم محمد على الانضمام للكتلة التفاحية الاسلامية وهي احدى الكتل الخمس التي تتنافس على مقاعد مجلس الطلبة في جامعة النجاح الوطنية.

عمان ٤/١٢/١٩٩٨

يا ليته صمت

كان جو الحديث متناثراً متباعداً غير حميم، لا سيما والحضور لا يرتبطون معاً الا بعلاقات محددة، فكان ان تقارب كل اثنين أو ثلاثة في الصالة وبدأوا يتكلمون معاً.. جهاز التلفزة مفتوح.. وصوت نجوى كرم يصدح فلا يكاد أحد من الحضور يستمع الا لجاره.

ولأنني جديد على مثل هذا الجوّ في بيت أحد الأصدقاء المشترك بين الجميع، ولأنني لا أعرف من الحضور أحداً الا هذا الصديق، ولأنه كان منشغلاً عن الجميع مع ضيف ذو جُبة عظيمة وجيبة كبيرة.. كان حظي ان جلست بجواره، (هو) دون سواه.. لقد كان لي منه موقف مسبق فلقد حذرني منه الصديق المشترك وآخرون، ولكن سوء حظي ارتبط بمقعد غير مشغول كان بقربي واحتله (هو) .. لم أصدق ما يقولونه عنه الا بعدما جاورني قسراً.. قالوا لي انه ثقيل الظل، بارد، كثير الكلام، سفيه، ممل، واكتشفت انه أكثر من ذلك فياليته صمت ويا ليته لم يتكلم!.

(أبو عائد) هكذا عرفني على نفسه دون ان احتك به أو حتى أفكر!.. فقلت له: أهلاً وسهلاً، وكتّفت يدي، أنظر واجماً في وجوه الحضور، والى مسامعي والحضور يتناهى صوت المطربة وهي تعلن تمنُّعها عن العودة لحبيبها لأنه حكم القاضي! عاد

أبو عائد يتحرش بي قائلاً: ما اسمك؟ قلت عبد الستار.

قال : أبو ماذا البركة؟.

قلت : لست أبا أحد!.

قال: لماذا من غير شر؟.

قلت (معلناً تبرمي منذ البداية) حياك الله!.

قال : اسمي أبو عائد لأنني أحببت اسم عائد منذ زمن، فأسميت ابني البكر عائداً، واخته عائدة ومعاد ومعيدة وعواد، حيث ان هذا الاسم واشتقاقاته تثير فيّ هموماً وشجوناً أتعرف ما هي؟، ودون ان ينتظر مني جواباً رد على نفسه قائلاً: أنا سأجيبك، لقد كنت دوماً في ترحال دائم لا أعمل في بلد أو وظيفة الا وانتقل لبلد آخر ووظيفة أخرى وهكذا.. حتى مللت التنقل وأحببت العودة فأسميت أبنائي بمشتقات العودة.. وأنت ما اسم ابنك؟.

قلت (وأنا أتميز من الغيظ) : لست متزوجاً.

قال : أبهذه السن ولم تتزوج؟ لماذا ذلك؟ وأنا بسنك كنت قد تزوجت مرتين وطلقت واحدة وخلفت ثلاثة وتعرفت على سبع نساء! عليك بالزواج كما فعلت أنا ، فهو نصف الدين، وأنا رجل متدين، ويجب الا تترك نفسك للشهوات والجرى وراء الملذات كما حصل معي في سنوات المراهقة لأنه..

قاطعته قائلاً (وبصلابة من يريد ايقاف الحوار) : لا أحب لأحد ان يعظني رجاء!.

قال : هل تعمل في الحكومة؟.

قلت : لا

قال : أنا أعمل في وزارة الأشغال، وعملنا مرهق كما تعلم، فأنا في الوزارة مساح، أخرج من الصباح ولا أعود الا مساء و...

قلت (بصرامة) أعلم.. أعلم.

عدل من جلسته، وبدل رجليه فوضع اليسرى فوق اليمنى ، والقى برأسه الثقيل فوق يده اليسرى المتكئة على ظهر الكرسي الذي اجلس عليه ، وبدأ يصدر أصوات صفير مقرف من بين فتحات أسنانه ....ثم قال مستطرداً : في أحد المرات كنت أمسح منطقة نائية فخرج علينا ثعبان عظيم يزيد طوله على أمتار ثلاثة ، وما أن برز برأسه من بعيد حتى هرب مساعدي وتركني وحدي ، فلم أجد بُدّاً من التعامل مع الثعبان ... قمت باللحاق به وهو يلحق مطارداًمساعدي ... أوسعته ضرباً بجهاز المساحة المرة تلو الأُخرى حتى أدميته و...

قلت (وقد بلغ السيل الزُبى) : الجو بارد!

قال (مغيراً حديثه) : نعم الجو بارد يقص المسمار، وهذه البرودة مرتبطة بالتقلبات الجوية عن شرق آسيا ، والثلوج تعم أمريكا وإيطاليا وكل ذلك كما يقول زوج إبنتي بسبب طبقة الأُوزون و....

قلت (مقاطعاً من جهة ، ومتنفساً الصعداء لتغير مجرى الحديث) : نعم يقص المسمار .

قال : والمطر قليل ... محاولاً الامساك بتلابيب الحديث مجدداً

وأردف: (مصراً على المتابعة) : اللهم ارحمنا من سنة الجدب هذه ، والتي تذكرني بسنة مثيلة مرت عليّ قبل عشر

سنوات عندما كنت أعمل في مصنع أحذية ، وكان مدير المصنع لا يقطع أمراً إلا بعد مشورتي و...

قلت :(وقد كدت أنفجر ، وددت لو ألصق فمه فلا ينطق أبداً) : نعم بعد مشورتك .

قال : (وقد أحس أخيراً نفساً عدائياً مني) : مالك لا تكلمني إلا باقتضاب بشديد

قلت : ومالي لا أُ كلمك ؟

قال : لا تتفوه الا بشق الانفس أو تسهم في البعيد أو لا تلتفت إليّ أو تنفخ أو لا تبتسم إلا مضطراً أو تردد ما أقول...

قلت :(وكاد أن يشتغل محللاً نفسياً لي) : وما العيب في التكرار ؟ وكنت قد مللته، ومللت مواضيعه التي لا تنتهي حتى تبدأ ، وتتمحور حول شخصه العظيمة أو ذاته المتعملقة حتى لو تعلق الحديث بحيوان القرش أو الفيل أو الغابات أو الطقس أو القنبلة الذرية أو ملابس كلنتون الداخلية كما بدالي فهو حاضر لا يغيب في كل هذه المواضيع وغيرها .

قال : (وقد بدأت الصورة تتجلى أمامه أو هكذا ظننت) : إن تكرارك لبعض كلماتي إنطباع بالسخرية أو الملل أو فقدان التواصل أو انقطاع حبل المودة أو رغبة بالهروب أو شوق للعزلة والصمت أو الإنكفاء .

قلت: إذاً انكفئ .

وأخيراً صمت وما كاد يفعل، وما زال الحضور يتحدثون في حبور ونجوى كرم تصدح.

١٩٩٩/٢/٧

دعم كتلة لارا دعم للإسلام العظيم ؟!

وقفت ثلاث طالبات مستجدات في حرم جامعة النجاح الوطنية يتابعن الحوار الدائر بين اختين أولاهما من حركة الشبيبة الطلابية (حركة فتح) وتدعى فاطمة ، والثانية من حركة حماس (حزب الإخوان المسلمين) وتدعى لارا ،وذلك في احد اطراف الساحة للجامعة تحت الجسر الذي يصل كلية الاداب والاقتصاد مع كلية التربية والعلوم ، وهو الجسر الذي بنته حركة الشبيبة الطلابية ... وكان بين الطالبتين الحديث التالي :

فاطمة : كيف تشنعين على أخواتنا باتهامهن بما يسيء ؟!

لارا : لم أفعل ، وما دليلك على ما تقولين ؟.

فاطمة: رأتك أخواتنا وأنت تمسكين بعدد من الطالبات المستجدات وتشنعين على بعض أخواتنا بالاسم حيناً ، وبالاجمال حيناً آخر ، وذلك بكلام لا تقبله الوطنية ولا أدب الاخلاق ولا الإخوة ولا الدين ؟!

لارا : وهل أنتم تعرفون الدين ؟ وتحبسون أولياء الله وعلماء الإسلام من قادة حماس في سجون السلطة ؟!

فاطمة : لماذا تحولين الكلام في منحى مخالف ، وكان كلامنا في نقطة محددة ؟ ومع ذلك فإن ما تقولينه هو خلط مقصود .

لارا : ماذا تعنين بالخلط المقصود ؟ إنكم علمانيون ، وتكرهون الدين ، إنكم وطنيون ولستم من الإسلام في شيء .

فاطمة : ها قد عدت تلقين الاتهامات جزافا ، وكما فعلت أخواتك مع الطالبات المستجدات ، وسأرد عليك بمنطق من يفرد رأيه ، وليس بأسلوب إثارة المشاعر و.......

لارا : نحن لا نثير المشاعر ...

فاطمة: إسمحي لي أن اكمل ، لقد طرحت وبانفعال مقصود أمام الطالبات المستجدات عدة مواضيع ، وكما قلت سأرد عليها فلا تقاطعيني .

بدأت الطالبات الثلاث يهمهمن و يتهامسن لا سيما وعدد من الطالبات الاخريات أخذن يتجمعن ويتحلقن حول فاطمة ولارا .

إستطردت فاطمة قائلة : لقد وضحنا في أحد نشرات الشبيبة إننا جزء من حركة (فتح) كما أنتم وغيركم جزء من الإخوان المسلمين ، كما ذكرنا أن السلطة مشروع (فتح) ويشاركها فيه عدد من التنظيمات الفلسطينية الاخرى ، وليس مشروع (حماس) او الجبهة الشعبية او حزب التحرير مثلاً. فمن الطبيعي ان يكون الشخص او التنظيم مع مشروعه، والآخرون في صف المعارضة له.وبنفس المنطق لو كانت (حماس) في السلطة فالكل منكم كان سيدعمها باعتبارها مشروعه وكنا سنكون في موقع المعارضة ، هذا أولاً . أما ثانياً فإن إنتمائي لحركة (فتح) او لحركة الشبيبة الطلابية لا يعني أنني مسلوبة الإرادة أو معدومة الرأي أو معصوبة العينين فيما يتعلق سواء بمصالح الطلاب

وهي الأهم أو بنشاطات ومؤسسات وأجهزة السلطة إيجاباً أو سلباً، وإنما نحن نحترم أننا أصحاب الارادة الصلبة وعين الحقيقة، والصوت الناقد لكل ايجابيات أو سلبيات كل مبادر أو محسن أو منجز وبالمقابل مخالف أو مسيئ أو مخطئ من أفراد أو أجهزة أو مؤسسات السلطة، ولا نقوم كالآخرين باغلاق أعيننا عن الايجابيات، وإبراز وتضخيم السلبيات فقط.

لارا: ان سلبياتكم هي فقط الواضحة والظاهرة ولا نرى ايجابيات لكم!!

فاطمة: ها أنت عدت للمقاطعة، ومع ذلك أرد عليك بالقول ان لكل موضوع أو حدث أو شأن وجهين وربما أكثر وأمثالك على ما يبدو لا يرون الا الجانب السيئ، وهذا اغفال متعمد للحقائق وأيضاً..

لارا: إن سلبياتكم جرائم...

فاطمة: أرجوك ان تسمي الأشياء بمسمياتها الصحيحة، ولا تهربين باللجوء للغلو والمبالغة، ولا أقبل اسقاطك الأخطاء للجزء ان وجدت على الكل وهذا أيضاً تضليل، فما لنا كحركة شبيبة وأخطاء أي فرد من أفراد أي مؤسسة لا سيما وانهم شخوص مختلفة ومؤسسات مختلفة ضمن إطار أعم وأشمل ويضم شرائح متعددة من المجتمع وهو السلطة أو الحكومة، وان كانت (فتح) جزء منها فلا يحق لأحد ان يعكس خطأ الفرد على المجموع، أو خطأ الجماعة الصغيرة على الكل بالمطلق، فكيف أُخطِّيء أسرة برُمَتّها أو عشيرة بكاملها إن أخطأ فرد منها وكيف أسلب قرية من قرى بلادنا ألقها وعنفوانها وأتهمها لو أساء أو أجرم فرد منها؟، وهل يؤاخذ الإخوان المسلمين في مصر بجريرة الحرب

الأهلية (الاسلامية) في أفغانستان؟ وهل بالمقابل يجب أن أرى الخطأ خطيئة أو جريمة كما قد يراه غيري وهل كل خطأ يجب أن تكون عقوبته الإعدام؟ من هنا تأتي ضرورة تسمية الأشياء بمسمياتها، وضرورة التحري وعدم التسرع أو التضخيم..

لارا: نعم هذا صحيح، ولكن امة الكفر واحدة، وأنتم تغطون على بعضكم!!.

فاطمة: سامحك الله، رغم انك عدت للتضليل ولتضخيم الأمور وتكبيرها، ففي حين اننا نتحدث في مساحة تقبل الاختلافات ما بين موافق أو معارض، ها أنت تحرفين النقاش الى شعارات والى كفر وايمان مما لا يقبل معه نقاش، ويذكرنا باختلاف المسلمين الى فرق تنازعت السلطة اثر مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأسبغت على خلافها القداسة الدينية في ظل ان الحقيقة كان صراع سياسي اقتصادي وعدالة اجتماعية.

لارا: أنتم علمانيون وتكرهون الاسلام، وتسجنون علماء الامة من حركة (حماس) وتتآمرون علينا مع السلطة.

فاطمة: لا أقبل منك كلمة أنتم، لأننا تشكيل له كيانه كما أوضحت سابقاً، نعم لا يتجزأ عن مؤسسة حركة (فتح) ولكنه يتميز، ويشارك جزء آخر من (فتح) ضمن مؤسسات في مشروع السلطة الوطنية، لذا عليك ان تتعلمي التحدث للعنوان الصحيح، واما أننا علمانيون وضد الاسلام فما أظنك صدقت، وبغض النظر عن تعريفات العلمانية المختلفة والتي لن أخوض فيها

هنا، نحن كمسلمين وكحركة (فتح) وكحركة شبيبة مع الدولة الديمقراطية التي تتيح للجميع حرية الاختلاف ضمن القانون، ولا أظن أحداً يحب أن يرى ذاته فقط أو صورتها ويُلغي الآخرين، إلا التنظيمات البغيضة والدكتاتورية التي تعتقد انها وحدها ظل الله في الأرض، أو تحتكر الصواب.

لارا: نعم، نحن على صواب لأننا نمثل الاسلام، ومن يدعمنا يدعم الاسلام العظيم، ومن لا يدعمنا يدخل النار خالداً فيها أبدا..

فاطمة: لا، لستم من يمثل الصواب، لا سيما وان هناك العديد من المؤسسات والمنظمات هي مؤسسات ضمن المجتمع أو الوطن المسلم أو الحضارة العربية الاسلامية التي نعتز بالانتماء لها ولستم من يمثل الصواب لأن هناك منظمات تلحق باسمها كلمة اسلامية غيركم وتعتقد أنها الصواب ايضاً مثل حزب التحرير الاسلامي، وحركة الجهاد الاسلامي، وحزب المسار الاسلامي... الخ، هذا في فلسطين فقط!.

ولستم من يمثل الصواب فقط لإن الاسلام العظيم لا يُقزّم ليمثله تنظيم محلي أو وطني أو عالمي، ولا يسمح بأن تحتكره فئة أو منظمة، وحزب الله هم الغالبون هم مجموعة أمة الاسلام على تعدد أفكارها وتفسيراتها وفئاتها وشرائحها، وليس فقط حزب الأخوان المسلمين أو فروعه.

احتدم النقاش بين الطالبتين فاطمة ولارا، وتجمع حولهما حشد كبير أخذ يتجاذب الموافقة والرفض، وبدأ عدد من الطالبات يتدخلن في الحديث، ويرفعن أصواتهن، الى ان جاء أحد الأخوة

من حركة (حماس) وطلب الحديث مع الأخت لارا، وانتحى بها جانباً وتحدث معها لدقائق، ثم عادت لارا ثانية في ظل ترقب الجميع لمضمون أو نتيجة الحديث بينها وبين الأخ من حماس، وتقدمت من فاطمة -التي كانت قد دخلت في حوار مع الطالبات المستجدات- وطلبت منها تأجيل النقاش الى يوم آخر، لأن عندها اجتماع للكتلة التي تنتمي اليها.

في اليوم التالي أصدرت كتلة لارا بياناً شنعت فيه على فاطمة، وعلى حركة الشبيبة الطلابية متهمة اياها بممالأة السلطة وبسجن علماء الأمة، والتعدي على فاضلات الاسلام.. وكال البيان الشتائم والسباب لحركة الشبيبة متهماً اياها بالوطنية والعلمانية واللادينية.. وبأن بنات الكتلة غير منضبطات.. الخ. وختم البيان بأن دعم كتلة لارا الانتخابية هو دعم للاسلام العظيم!.

معك وليس معك

في دبي، درة الخليج العربي، القى بعصا الترحال، صارع الحياة وعاركها، وعلى صغر سنه الا ان همه كان أكبر من قدرة الاحتمال.. وللانسان قدرة ان تعداها الثقل جرت عليه الويلات، وأحدثت فيه الشروخ والندوب.. كانت دبي واحدة من المحطات التي تواصل فيها، وفيها وقف ساكناً تائها لا يدري ما يفعل.. أبَعْد كل هذه المحطات والتنقلات والقرارات الصعبة.. يعود لمرحلة هو فيها بين الخسران والضياع؟!! لم يدري كيف السبيل للخروج من أزمة الترحال وصراع الانتقال المتواصل.

من على كتفيه لم يستطع ان يلقى بثقل الأيام الغابرة، وتلك العابرة، ولا تلك المثابرة. فانحنى ظهره حتى كاد رأسه يصل ركبتيه.

في شوارع مدينة دبي الفسيحة، وبين بناياتها الشامخة كان يجول بسيارته الفارهة، من شاطئ الى شاطئ ومن بؤرة الى ثانية كان يتقلب مزاجه، ويتردد صدى كلماتها في اذنيه.. أخرج من قلبي! اخرج من عقلي! اخرج من حياتي!.

توقف على طرف أحد الشوارع، ترجل من السيارة، تقدم الى أحد المقاهي المنتشرة وطلب كأساً من عصير البرتقال، شربه وكان به حموضة ظاهرة أعادت اليه ذكرى محل العصير القابع في أحد أزقة مدينة نابلس ولكن الفرق كبير، في الأولى

كان يصنع غداً للآخرين، وفي المدينة الثانية، لم يستطع ان يصنع غداً لها.

كان مقداماً، شرساً حين يداهم، لينا، حنوناً حين يتفاهم عطوفاً محباً يعتصر الألم قلبه لأدق الأسباب، هكذا كان يراه البعض، عصبي المزاج، حاد القسمات، شديد الصرعة في ساحة الفعل.. لكن الكل فهموه وربما الكل أيضاً أحبوه لأنهم عرفوه، وفهموا تقلباته الا هي!!.

وقفت في حلقه كشوكة، لم يستطع ان يبتلعها، وبذل جهداً مضاعفاً لينتزعها، ففشل، فأصبح هذا الفشل ملازماً له.. فاشل في حياته الخاصة، فاشل في علاقته معها، فاشل في ان يوصل لها ما يريد، فاشل في اسعادها، فاشل في ارضائها، فاشل في التذلل لها، فاشل في احتضانها، فاشل في فهمها، فاشل في افهامها ما يريد، فاشل في تلبية رغباتها المتناقضة، فاشل في ان يبني لها قصراً، فاشل في ان يضع الدنيا في صُرة ويدسها في جيبها، فاشل في ان يكون معها في عمان وفي دبي وفي نابلس وفي الكويت في آن واحد، فاشل في غسل دماغه من سيطرتها عليه، فاشل في نزع حقدها من قلبها، حتى انه فاشل في انتزاعها من جلده، فاشل في التخلص منها، وفاشل في التقاط اللحظة المناسبة ليعبر لها عن فشل حياته معها وفشل حياتها معه، وضرورة ان يلقي بأثقاله من على كتفيه ويرميها بعيداً عن البحر.

كان يتأهب للسفر الى دبي، وهو في قمة الانشراح والانبساط.. لماذا؟ وربما ما كان له ان يسأل نفسه مثل هذا

السؤال لولا ان سألته هي، فتلجلج فرفعت حاجبيها وتبرمت وهي والابتسامة من الأعداء.

ظل صامتاً أمامها يحدث نفسه، وعيناه شاخصتان نحو البعيد، لماذا أنا منشرح؟ تسألني وكأنني ذاهب في نزهة أو فسحة أو سفرة سياحية، لماذا؟ وكأنني في ترحالي المرهق المتعب ابتعد عنها بارادتي؟ لماذا؟ وكأن بحثي عن الغد الذي ترسمه هي لي وتطلب وتلح وتأمر ان آتيها به يصبح حين فرحي ليس مطلبها وانما بغيتي لوحدي.

تبتئس حين أفرح، وما أنا بالفَرِح الا حين أعطي، أعطي لها ما تريد.. كيف تبتئس مما تفرح له من خلالي؟ في الموقع الصعب يبرز السؤال الصعب!.. تريد وتطلب فتتحول الارادة الكامنة فيها والطلب الى ارادة فاعلة فيّ وتنفيذ، وحين القطاف الذي سيُلقى في حضنها تتكهرب وتتلوى وتنفر وتتغير! وكأن ما نُنفذ ليس بالكافي! أو انه لم يكن المطلب المقصود! أو انه يجب ان ينفذ مع نقيضه الذي يستحيل على التحقيق لتضاد الزمن والامكانيات المادية!.. ولكنها لا تفهم الا ان تسلخ منه روح الابداع، وتجلد قفاه بالتشريق والتغريب.

شرب كأس العصير، وبدأ يحدق في المارة واضعاً كلتا يديه تحت ذقنه، لم ير أحداً أمامه، ورآها تتراقص أمامه.. كشبح يأتي ثم لا يلبث ان يتلاشى، يأتي.. فينتفض كيانه من أطراف أصابع قدميه حتى نظارته، وجذور شعر رأسه.. يذهب فينبسط جسده، وتتراخى خلاياه، ويتخدر كمن استلقى على سريره بعد جهد يوم طويل شاق انهاه بحمام ساخن ونام.

يا ليتها ما كانت، ويا ليت تلك الأيام قفزت عنه، ويا ليت لقياها كان من الكوابيس.. ولكنها موجودة وخيالها لا يفارقه، حتى وهي في البعيد يراه.. تترقبه لتقذف في وجهه كل فن الحماقة الذي اكتسبته.. أو تعلمته من صديقاتها أو لربما ورثته طباعاً غبية من زوجة ذلك الفلاح التي رغبت في ممازحة زوجها! فأدخلت عليه ثعباناً ساماً وهو نائم.. يا ليتها تخطّته ولم تره، أو يا ليته كان يمسح نظارته بالمحرمة الورقية حين رآها لأول مرة فمرت من أمامه مرور السيارات من أمام شاخص على الطريق السريع.

لقد كان فاشلاً في اختيار المرأة المناسبة أو في تقييمها بشكل صحيح والدليل على ذلك -قالوا له- زواجه بها، لقد حذروه منها.. كل اصدقائه في الشركة حذروه، بل ولاموه على مجرد التفكير بها، لقد كانت زميلة لهم بالشركة.. جميلة، أنيقة، ولكن متكلفة، غيورة، كذوبة، أنانية، نكدة.. هكذا قيّموها له فلم يلتفت لهم وتزوجها ليكشف بعد سبع سنين عجاف قضاها معها انه بها خدع وأنه باختيارها قد فشل.

عاد يتجول في شوارع دبي، ثم توقف بسيارته وتخير مكاناً أنيساً وأثيراً لديه في مواجهة البحر، وجلس يبكي، على نفسه بكى، وعلى نابلس بكى، وعلى لحظاته الثمينة في الوطن بكى، وعلى مشاركتها حياته بكى، وعلى سبع سنوات دون أطفال بكى، وعلى هجر الخلان بكى وعلى وفاة أمه بكى، وعلى أصدقائه في عمان بكى، وعلى رحيله دون وداع بكى، وعلى غُرْبته بكى، وعلى سريره في غرفته المنعزلة بكى، وحتى

على جحشة جده الودودة التي نفقت بكى.

رن الهاتف المتنقل في جيبه، فاستله وقال السلام عليكم، فكانت هي على الجانب الآخر من الخط صرخت حتى وصل صوتها لعدد من الهنود المتجولين في المكان والذين عبروا عن استغرابهم بالتلفت حولهم لمحاولة الاستدلال على مصدر الصوت.. صرخت فيه لماذا تتركني وحيدة؟!.

وتمر بي الأيام والعادة الشهرية تروح وتأتي ولا أراك.. صرخت.. أريد ان أكون معك في دبي، وأريد ان أبقى على عملي في عمان وأريد ان أكون مع أهلي في الكويت وأريد ان لا أقاطع اختي المتزوجة في نابلس.. والهنود ما زالوا يلتفتون حولهم.

رام الله ١٩٩٩/٢/١٩

جريمة قتل!!

أمسكت بالخنجر وشدت يدها عليه، رفعته الى شفتيها.. قبلته.. بللت النصل اللامع بلعابها.. ثم هوت به عموديا على جسده مرة وثانية وثالثة، طعنته ونفذت الى قلبه الموجوع، مزقته فتناثرت منه آهات المحبة، وآهات الوجع، وتبعثرت كل زفرات الحرقة وأنات الألم الراكد فيه.. كان يتقبل الطعنات صامتاً، حتى ان جسده الممدد على السرير لم ينتفض أو يعترض أو يقاوم تكرر الطعن..

لم يصرخ، بل لم يتفوه بغير آه خافتة ترافقت مع اتساع حدقتي عينيه تعبيراً عن الدهشة والألم الممتزج بالسكينة والراحة.. أدخلت نصل الخنجر في جسده، وبدأت ترسم في الصدر العاري الأخاديدً والمسارات.. مزقت منه الأحشاء، واخترقت ما بين ضلوعه.. لقد فارقته الروح فتسامى، ولم يرهقه فعل الخنجر في جسده الفاني.. أخذ يضحك ويقهقه بقوة.. اين هي تلك المرأة التي كانت تعطيه من طرف اللسان والصدر والوصال حلاوة.. وما كبتت في صدرها لسنوات طوال جنون الاستحواذ والاستيلاء.. يقترب فتنفجر، يبتعد فتملؤها مشاعر الأنانية ورغبات الاستحواذ والاستعباد.

انها تحبه في ذاتها، وتكرهه لذاته، تحبه لنفسها وتكرهه لنفسه أو للآخرين، تحبه حتى الترنح وتدنيه حتى لا معنى للدنو

من دونها.. جسد طري وريق عسليّ وصدر ثريّ.. وفخذان بضان ووجه لا تعلوه أخاديد أو بثور.. وعندما يظن انه قد اندغم فيها تركله بعيداً عن قلبها وتغلقه ملقية بالمفتاح.. يبتعد فتتضخم فيها مشاعر التسلط والاستحواذ والاستئثار به، وترفض تحرره، وتبغض استقلاله الذاتي.

رمت بالخنجر جانباً، وألقت بنفسها على الجسد المسجى تنتحب وتبكي وهو في تحرره يطير نحو البعيد، يضحك فلا تسمعه، يفرح فلا تراه.. يعدو مخترقاً الزمن، لا قيمة للأبعاد، فالبعيد فسيح كبير متاح لا تحده حدود، ولا تقيده قيود، ولا يكبله زمن ولا يمنع علوه سقف، ولا يحد قدميه أرض.. طار فوق كل الأشياء، وفارق فيها اعتصاره منها قطرة قطرة.

هوت عليه بصدرها، تطلب الغفران، وتلتمس المعذرة وتستجدي السماح من لحم متكوم مبلل بالدم الأحمر المهراق، تحسست أعضاءه فأدركتها معطلة.. باردة برودة صفيح في يوم قر، متجمدة لا تتحرك ولا تُحرّك، فالأجزاء تبعثرت وعُجنت وكُورت في كتلة من الطين المسوّم.

لن أكون الا لك، ما دمت لن تكون الا لي.. أنا وحدي، لا أقبل فيك مشاركة الولد أو الوالد، لا أقبل فيك مشاركة الخروج أو الدخول.. لا أقبل فيك مشاركة العطاء للآخرين، لا أقبل فيك تقبيل فيك أو مشاركة الابتعاد في الزمن، لا أقبل لنظرك الا ان يراني وحدي متزلزلة فيك، لا أقبل الا احتواءك بين ضلوعي لا تستمع الا لوجيب قلبي، وحديث نفسي، ولوعة شوقي.. هكذا كان حديث عينيها له.. حتى وهو لا يدرك

جسداً ما تقول!! قتلته فاحتوت جسده، واستحوذت عليه فحررت قلبه، وتركت عقله هائماً في السحاب.

كانت الدكتورة عبلة متخصصة في علم التحنيط.. فلم يكن صعباً عليها ان تحتفظ بجثة زوجها دون تحلل عِشرين عاماً منذ مفارقة روحه المتحررة منها لجسده المستعبد لها.. ولأنها طبيبة وتحظى باحترام محيطها فلم يشكّ أحدهم فيما ادعته من هجران زوجها لها وفراره نحو البعيد.. وبشكل من الأشكال صدقت في ذلك وما كذبت.. لعشرين عاماً ظلت معه أو مع الجزء الفاني منه، فلا بُعد ولا فراق، ولا زمن يفلت منها ولا مساحات تفصل بينهما.. لقد صممت له تابوتاً خاصاً مبطناً بالخز والديباج، ونثرت فوقه عشرات الصور التي كان المشترك بينها بالطبع صورتها هي.

يومياً كانت تجلس على أريكتها المفضلة المتقادمة بالقرب من مرقده، وتحدثه.. تصرخ فيه، تعنفه، تلومه، ثم تعود لتحدثه عما حصل لها في يومها، وتقصُّ عليه مما قرأت أو رأت أو شاهدت لا سيما وهي تعلم حبه للروايات والأقاصيص.. وفجأة تقف في الغرفة الفسيحة الرطبة المعطرة، وتبدأ في الدوران دون ان يبدو ان هناك نهاية لذلك.. لا تكف عن الصهيل أو العويل الى ان يهدها التعب، ويبدأ العرق الغزير يقطر من مسامات وجهها، وينز من كامل خلايا جسدها الشانخ لترتمي بقربه متوسلة راجية، مستسمحة معتذرة له عما قامت به!

عادت الدكتورة عبلة من عملها يملأ دماغها كابوس لا ينقطع، يعاودها في نومها، ويلازمها في يقظتها.. انها قتلت

زوجها!!.. انها ازهقت روحه.. وانها حنطته، ووضعت جثته في الغرفة التي امتنعت عن أحد لعشرين عاماً الا عنها.. تحاول جاهدة ان تقنع نفسها بفساد أحلامها وخيالاتها.. فلا سكيناً حفرت به أخاديداً في جسده، ولا خنجراً به انتزعت قلبه من جوفه.. فهي ليست الا له فكيف تقتله؟.. وما دام لن يكون الا لها وحدها فكيف تفنيه بغير ذاتها؟.. وكما لا تقبل ان يشاركها فيه حتى الوالد أو الولد فلن تسمح لروحه ان تفارق جسده! وكما أنها ترفض الابتعاد عنه وتمزق الزمن الذي يحاول التحايل على تقربها منه فكيف هو مسجى أمامها في صندوق خشبي، في غرفة نومها!؟ قابع في المساحة الضيقة التي اختارتها هي، منزوٍ، منعزل، مفارق...

عادت الدكتورة عبلة من عملها كما تعودت منذ عشرين عاماً.. فألقت بمعطفها على أول مقعد ودلفت الى المطبخ لتصنع كوباً من الشاي... فصنعت كوبين! كان الأول لها، وكان الثاني له.. يعيش وحيداً في حقل ذاته، ويرتع حراً مستقلاً في دار روحه!!.

رام الله ١٩/٢/١٩٩٩

المحتويات

الكاتب

بكر محمود أبو بكر

١ – مواليد فلسطين ١٩٦٠.
٢ – تخرج في العام ١٩٨٥ بكالوريوس هندسة مدنية .
٣ – شارك في عدة دورات فكرية وادارية ونقابية وسياسية.
٤ – رئيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين في الكويت ٨٤-١٩٨٦.
٥ – عضو قيادة حركة «فتح» بالكويت ١٩٨٧-١٩٩١.
٦ – عضو المجلس الاداري للاتحاد العام لطلبة فلسطين منذ ١٩٨٩ .
٧ – عضو المجلس الوطني الفلسطيني.
٨ – مسؤول الدراسات والدورات في مكتب التعبئة حركة «فتح»، تونس ١٩٩١-١٩٩٦ .
٩ – نائب المفوض السياسي العام ومسؤول مدرسة الكوادر في التوجيه السياسي والوطني في فلسطين.
١٠ – له العديد من الدراسات والكتابات والأبحاث المنشوره في الصحف و المعتمدة للدورات.
١١ – صدر له :

* مفاهيم لا بد منها.
* تحقيق الفوز في قيادة الحملة الانتخابية.
* مبادئ المسؤولية التنظيمية.
* كيف تقيم معسكراً .

ويعتبر هذا الكتاب أول مجموعة قصصية له.